الفصل الثانى
النبوة الخاتمة

● حالة العرب وقت الرسالة :

كظلمة الليل البهيم التى تسبق طلوع الفجر ، كانت الجزيرة العربية قبيل مبعث رسول الله ﷺ ، فقد كان المجتمع فيها وثنياً يسبح فى ظلمات الجاهلية الجهلاء .

وتعتمد أفكارنا عن الوثنية الجاهلية على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، ورغم إزراء هذه الأحاديث لكل شئ قبل الإسلام ، فقد جمعها المسلمون فى إطار أبحاثهم التاريخية واللغوية ، وإلى هذه الجاهلية تنسب جميع الخطايا التى لعنها القرآن الكريم .

وقد ورد ذكر الجاهلية فى قوله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ (٢) .

وقوله جل شأنه : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (٣) .

والجاهلية فى اللغة : هى زمن الفترة ولا إسلام ، وقالوا : الجاهلية الجهلاء فبالغوا ، وقولهم الجاهلية الجهلاء هو توكيد للأول يشتق من اسمه ما يُؤكَّد به .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ (٢) الأحزاب : ٣٣ (٣) الفتح : ٢٦

وفى الحديث الشريف : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ، هى الحال التى كانت عليها العرب قبل الإسلام ، من الجهل بالله سبحانه ، ورسوله ، وشرائع الدين ، والمفاخرة بالأنساب ، والكِبْر والتكبر .. وغير ذلك [1] .

الجاهلية - إذن - هى الاسم الذى يُطلق على ما كانت عليه جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ، أو بعبارة أخص : الاسم الذى يُطلق على الفترة التى خلت من الرسل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .. وهى بخلاف الجاهلية الأولى التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم والتى تمتد من آدم إلى نوح عليهما السلام ، أو إلى أنبياء آخرين .

فالجاهلى : هو العربى الوثنى الذى كان يعيش قبل ظهور الإسلام ، أما المخضرم : فهو الذى عاش فى الجاهلية وأدركه الإسلام ، وأكثر ما يُطلق هذا اللفظ على الشعراء الجاهليين والمخضرمين .

أما من حيث المعنى الدقيق لكلمة « جاهلية » فالرأى الشائع أنها من « الجهل » ، وهو عين ما نعتت به الأزمنة السابقة للإسلام .. أما الإسلام فهو زمن النور والمعرفة . و « جهل » ضد « علم » ، وردت بهذا المعنى كثيراً فى اللغة القديمة ، ووردت أكثر فى الأزمنة الحديثة .

وهناك مَن يرى أن هذا المعنى ثانوى ، وأن « جهل » معناها الأول ضد « حلم » لا « علم » ، فمعناها - على هذا الرأى - : قسا ، وخشن ، وغلظ .. أى أنها الهمجية .

وهناك مَن يذهب إلى أنها : العنف والحدة والغلو فى تقدير الأمور كما كان العرب يفعلون .. فقد كانوا يغالون فى الكرم حتى يكون سفهاً أو سرفاً ، ويغالون فى الحفاظ والثأر حتى يكون عدواناً ، ويغالون فى الشجاعة حتى تكون تهوراً .. وهكذا .

---

(١) لسان العرب مادة « ج هـ ل » .

فى حين أن القصد ، هو السبيل السوى فى كل شئ ، وهو الذى جاء به الإسلام .

ومن مثل ما يؤيد هذا المعنى للكلمة الحديث الشريف : « ومَن استجهل مؤمناً فعليه إثمه » ، قال ابن الأثير : أى مَن حُمِّل شئ ليس من حقه فيغضبه ، فإنما إثمه على مَن أحوجه إلى ذلك .

والمعنى الدقيق - الذى نميل إليه - أنها مصطلح يُستعمل فى كل ما ورد فيه من مواضع للدلالة على نقيض الإسلام ، وعلى الحالة التى كانت سائدة فى جزيرة العرب قبل بعثة النبى ﷺ ، وعلى الوثنية ، وعلى الفترة السابقة للإسلام ، وعلى أهل هذه الفترة ، فهى زمن الجهالة والوثنية .

فالجاهلية ضد الإسلام ، وتُطلق على الفترة التى لم يكن العرب فيها قد عرفوا الإسلام وشريعة اللّه ، وعلى المعتقدات الجارية فى تلك الفترة .

وهناك مَن يفرِّق تفرقة بيِّنة بين عرب الجنوب وعرب أواسط الجزيرة ، فقد كان الأولون مفطورين على التدين ، أما الآخرون فلم يكونوا فى الواقع على دين .

بَيْدَ أن هذا الرأى يجب أن يتعدل ، لأن كثيرين جداً من عرب الجنوب قد نزحوا إلى الشمال - وكان هذا حال يثرب خاصة - على أن عرب أواسط الجزيرة لم يكونوا يحفلون بالأنظار الدينية ، نستبين هذا من أشعارهم وغيرها من آثارهم ، وغاية ما وصلوا إليه هو الإيمان الغامض بإله ، أو الاعتقاد فى المنايا والمنون .

أما وصف القرآن الكريم لعبدة الأصنام ، فإنما ينصرف - على الأغلب - إلى زمن متطاول فى القِدَم ، وينصرف أقله إلى مَن عاصروا النبى ﷺ .. ذلك أن موقف هؤلاء منه يظهرنا على أن تبجيلهم لأصنامهم لم يكن متمكناً فى نفوسهم .

أما ما كان يحتفل به العربى الوثنى أكثر من دينه ، فهو صلته بقبيلته ، فالعشيرة هى الوحدة التى ينبنى عليها مجتمعه كله ، وقد بلغ من قوة هذه الصلة أن الإسلام عندما جاءهم لم يكن يستطيع - فى نظرهم - أن يحل فى نفوسهم محل قبائلهم ، ولهذا قاوموه وحاربوه ، حتى أظهره اللّه عليهم .

لقد أحاط البَشرية قبل بعثة الرسول ﷺ ظلام حالك ، كان ظلاماً مطبقاً ، وكان ليلاً طويلاً نشطت فيه الخرافات وانزوت الأفكار الصالحة ، ودبَّ الجهل وانكمش العلم ، وعمَّ اليأس وقلّ الأمل ، وأوشكت الإنسانية أن تفقد ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم ، وأن تتردى فى هوة سحيقة هى إلى عالَم الحيوان أقرب .

كان العرب - قبل الإسلام - يعيشون فى صور من وأد البنات ، وسبى النساء ، وعبادة الأصنام ، وفى حروب لا تنقطع ، وغارات لا تهدأ بين القبائل التى تتحارب وتتشاجر دون قانون يحكمها ، أو نظام يضمها .

ولعل أدق تصوير وأخصره لحالة العرب فى جاهليتهم ، هو ذلك الذى قرره جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه أمام النجاشى ملك الحبشة حينما سأله عن دين الإسلام وعن الرسول ﷺ فقال له : « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف » .

كان العرب فى جاهليتهم يرون الشجاعة فى عدد مَن يقتل الواحد منهم من عدوه وذوده عن عشيرته !!

كانوا يتعاطون الخمر ، ويرون أن من دواعى الفخر أن يظل الواحد منهم فى حانوت الخمَّار حتى يعلن صاحبه نفاد الشراب !!

كانوا لا يتعافون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، ويبيحون الزنا ، بل ينظمونه ويقننونه .

وكانوا يجيزون نكاح الأختين ونكاح المقت ، وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه وهو أبشع أنواع النكاح ، ولذا وصفه اللّه تعالى بقوله : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ٢٢

لم يكن الحجاب بينهم معروفاً ، ولهذا وصف الله تعالى التبرج بأنه « تبرج الجاهلية » ، وكان للنساء عندهم الحق فى تطليق الرجال !!

كانوا يفرضون الضرائب على الفقراء يدفعونها للأغنياء من عَرَقهم وجهدهم ، فإن لم يكف العَرَق والجهد ، سجنوا فيها أو دفعوها من دمائهم .

ولم تكن غلة الأرض تفى بحاجة أهلها - إلا فى بعض المواضع كاليمن والواحات حيث يكثر الطعام - فى حين كان أهل مكة يعيشون على نقل السلع بين اليمن وبلاد الشام ، إلى جانب ما يربحونه من الحجاج الذين يزحمون مدينتهم كل عام .

بَيْدَ أن عرب الصحراء كانوا دائماً فى مسغبة ، لذا كانون يئدون البنات خشية الإملاق وما يجلبه من عار .. ولهذا كانوا يستكملون ما ينقصهم من لحوم الإبل وألبانها بالإغارة على القبائل المجاورة .. غير أن هذه الغارات لم تكن تُكثر من جملة أزوادهم ، ولكنها كانت تساعد على إنقاص الآكلين .

وكانت العرب فى جاهليتهم تعبد الأصنام .

والصنم فى اللغة : واحد الأصنام ، يقال : إنه معرَّب « شمن » وهو الوثن . قال ابن سيده : وهو ينحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس .. والجمع : أصنام .

وقد تكرر فى الحديث الشريف ذكر الصنم والأصنام ، وهو ما اتُخِذَ إلهاً من دون الله تعالى .

وقيل : هو ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن .

وروى أبو العباس عن ابن الأعرابى : الصنمة والنصمة : الصورة التى تُعبد .

وفى القرآن الكريم : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ (١) .. قال

---

(١) إبراهيم : ٣٥

ابن عرفة : ما اتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن ، فإذا كان له صورة فهو صنم .

ولعل الفرق بين الوثن والصنم : أن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ، يُنحت ويُعبد . والصنم : الصورة بلا جثة .

ومن العرب مَن جعل الوثن المنصوب صنماً . روى عن الحسن أنه قال : لم يكن حى من أحياء العرب إلا ولها صنم يعبدونها يسمونها أنثى بنى فلان .. ومنه قول اللّه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً ﴾ (١) ، والإناث : كل شئ ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة (٢) .

واتخذ العرب لهم أصناماً يعبدونها من دون اللّه .. فكان أقدمها « مناة » - صنم من خشب - نصبوه على ساحل البحر من ناحية « المشلل » بقديد ، بين مكة والمدينة ، وعظّمته العرب جميعاً .. وكان أشدهم تعظيماً له : الأوس والخزرج .

ثم اتخذوا « اللّات » بالطائف ، وكان صخرة مربعة عظّمتها قريش وثقيف .

كما اتخذوا « العزّى » بوادى حراض : من نخلة يقال إنها كانت تأنيها شيطانة !!

وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وأعظمها عندهم « هُبَل » ، اتخذوه من عقيق أحمر على صورة إنسان ، ونصبه خزيمة بن مدركة بن الياس ابن النضر ، ووضع أمامه القداح .

وكان لهم « أساف » و « نائلة » ، رجل وامرأة من « جرهم » يقال إنهما زنيا فى جوف الكعبة فمسخهما اللّه حجرين ، فعبدتهما خزاعة وقريش ومَن حجَّ من العرب !!

---

(١) النساء : ١١٧ (٢) لسان العرب مادة « ص ن م » .

وكان لهم « ذو الخَلَصة » - مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج ، وتعظمها وتهدى إليها خثعم وبجيلة .

ولدوس صنم يقال له « ذو الكفين » .

ولبنى الحارث بن يشكر « ذى الشرى » .

ولقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان « الأقيصر » .

ولمزينة « نهم » ، ولأزد السراة « عائم » ، ولعنزة « سعير » ، ولطئ « الفلس » ، ولخولان « عم أنس » ، ولبنى ملكان بن كنانة « سعد » .

وكان لأهل كل دار من مكة صنم فى داره ، يعبده ويتمسح به عند سفره وقدومه !!

واتخذ العرب مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها تعظيمها للكعبة ، ولها سدنة وحُجَّاب ، يطوفون بها ويهدون لها وينحرون عندها كما يفعلون عند الكعبة !!

وكان الرجل منهم إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فينظر إلى أحسنها ويتخذه رباً ، ويجعل من الثلاثة أثافى [1] لقدره ، فإذا ارتحل تركه ، وإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك !!

وعن أبى رجاء العطاردى قال : « لما بُعث النبى ﷺ فسمعنا به ، لحقنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار » . قال : « وكنا نعبد الحجارة فى الجاهلية ، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ، ثم طفنا به » .

وقال أبو عثمان النهدى : « كنا فى الجاهلية نعبد حجراً ، فسمعنا منادياً ينادى : يا أهل الرحال ، إن ربكم قد هُلك فالتمسوا رباً .

---

(١) الأثافى : هى الأحجار توضع تحت القِدر لترفعها عن النار حتى ينضج ما بها .

قال : فخرجنا على كل صعب وذلول ، فبيّنا نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادى : إنّا قد وجدنا ربكم - أو شبهه - فإذا حجر ، فنحرنا عليه الجُزر » !!

وعن عمرو بن عبسة قال : « كنت امرءاً ممن يعبد الحجارة ، فينزل الحى ليس معهم إله ، فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار ، فينصب ثلاثة لقدره ، ويجعل أحسنها إلهاً يعبده .. ثم لعله يجد ما هو أحسن قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره » !!

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة ، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً - بعدد أيام السنة - فجعل يطعن فى وجوهها وعيونها بسية قوسه ويقول : ﴿ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ، إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (١) .

غير أن العرب فى جاهليتهم - شأنهم شأن أسلافهم من عبدة الأصنام - لم يكونوا يعتقدون أن الألوهية قد توزعت فى هذه الأصنام دون وجود إله قاهر فوقها .

وما جحدوا كونه تعالى خالق العالَم أو مدبره ..

بل كانوا يؤمنون بوجود الله تعالى ، وأنه الخالق والمدبر .. إنما اتخذوا هذه الأصنام أولياء لهم وحماة ، يدعونهم عند الشدائد ، ويستغيثون بهم فى الملمات ، ويزعمون أنها تسمعهم وتقدر على نصرهم ، فاتخذوها وسائط بينهم وبين الله تعالى خالق العالَم ومدبره .

كانت عقيدتهم فى شأن هذه الأصنام : أن لها شيئاً من التدخل والنفوذ فى ألوهية ذلك الإله الأعلى ، وأن كلمتها تُتلقى عنده بالقبول ، فتتحقق أمانيهم بواسطتها ، ويستدرون النفع ويتجنبون المضار بشفاعتها !!

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الإسراء : ٨١ (٢) العنكبوت : ٦١

ويقول جَلَّ شأنه : ﴿ قُلْ لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (١) .

فهم قد أقروا - بنص القرآن الكريم - بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر .

إنما كانت حُجَّتهم أن هؤلاء الأولياء لمكانتهم عند الله تعالى وقُربهم منه - نظراً لصلاحهم وتقواهم - هم الوسطاء والشفعاء بينهم وبينه .. تعالى الله عما يقول الظالمون عُلواً كبيراً .

ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢) .

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل - رحمه الله - مبيناً حال العرب فى جاهليتهم : « كانت للعرب فى عبادة الأوثان أفانين شتّى يصعب على باحث اليوم أن يحيط بها ، فقد حطم النبى (ﷺ) الأصنام وأمر أصحابه بتحطيمها حيثما ثقفوها ، وتناهى المسلمون عن التحدث عنها بعد أن عفوا على آثارها وأزالوا من الوجود فى التاريخ وفى الأدب كل ما يتصل بها .

« على أن ما ورد من ذكرها فى القرآن ، وما تناقلته الروايات فى القرن الثانى للهجرة عنها ، بعد إذ أمن المسلمون فتنتها ، ينبئ عما كان لها قبل الإسلام من جليل المكانة ، وما كانت عليه من مختلف الصور ، ويدل على أنها كانت تتفاوت فى درجات التقديس .

---

(١) المؤمنون : ٨٤ - ٨٩ (٢) الزمر : ٣

« وقد كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة ، وكانت هذه المعبودات الجاهلية تختلف ما بين الصنم ، والوثن ، والنُصُب .

« فالصنم ما كان على شكل الإنسان من معدن أو خشب .. والوثن ما كان على شكله من حجر .. أما النُصُب نصخرة ليست لها صورة معينة ، تجرى عليها قبيلة من القبائل أوضاع العبادة لما تزعمه من أصلها السماوى أن كانت حجراً بركانياً أو ما يشبهه . ولعل أدق الأصنام صنعاً ما كان لأهل اليمن ، ولا عجب ، فحظهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز ولا عرفه أهل نجد وكندة .

« على أن كتب الأصنام لا تشير بالدقة إلى شئ من صور هذه الأصنام ، إلا ما قيل عن « هُبَل » من أنه كان من العقيق على صورة الإنسان ، وأن ذراعه كسرت فأبدله القرشيون منها ذراعاً من ذهب ، و « هُبَل » كان كبير آلهة العرب وساكن الكعبة بمكة فكان الناس يحجون إليه من كل فج عميق .

« ولم يكن العرب ليكتفوا بهذه الأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم ، بل كان أكثرهم يتخذ له صنماً أو نُصُباً فى بيته ، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ، ويأخذه معه فى سفره إذا أذن له هذا الصنم فى السفر (!!) .

« وهذه الأصنام جميعاً ، سواء منها ما كان بالكعبة أو حولها ، وما كان فى مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها ، كانت تُعتبر الوسيط بين عُبّادها وبين الإله الأكبر . وكان العرب لذلك يعتبرون عبادتهم إياها زلفى يتقربون بها إلى اللّه (تعالى) وإن كانوا نسوا عبادة اللّه (سبحانه) لعبادتهم هذه الأصنام .

« ومع أن اليمن كانت أرقى بلاد شبه الجزيرة كلها حضارة بسبب خصبها وحُسن تنظيم انحدار المياه إلى أرضها ، لم تكن مع ذلك مطمح النظر لأهل هذه البلاد الصحراوية المترامية الأطراف ، ولم يكن إلى معابدها حجهم ، وإنما كانت مكة وكانت كعبتها بيت إسماعيل مثابة الحاج ، إليها كانت تُشَد الرحال

وتشخص الأبصار ، وفيها أكثر من كل جهة سواها كانت ترعى الأشهر الحُرُم ، لذلك ولمركزها الممتاز فى تجارة العرب كلها كانت تعتبر عاصمة شبة الجزيرة .

« ثم أراد القَدَر [1] من بعد ، أن تكون مسقط رأس محمداً ﷺ النبى العربى ، فتكون بذلك متجه نظر العالَم على توالى القرون ، ويظل لبيتها العتيق تقديسه ، وتبقى لقريش فيها المكانة السامية ، وإن ظلت وظلوا جميعاً أدنى إلى خشونة البداوة التى كانوا عليها منذ عشرات القرون » أ هـ [2] .

* * *

● كيف نشأت عبادة الأصنام :

نشأت عبادة الأصنام باتخاذ الوسطاء والشفعاء .. وفى نشأتها يقول هشام ابن محمد ابن السائب الكلبى فى كتابه « الأصنام » :

« أول ما عُبِدت الأصنام ، أن آدم عليه السلام لما مات ، جعله بنو شيث ابن آدم فى مغارة فى الجبل الذى أهبط عليه آدم بأرض الهند - ويقال له « نوذ » وهو أخصب جبل فى الأرض - فكان بنو شيث عليه السلام يأتون جسد آدم فى المغارة ، فيعظمونه ويترحمون عليه .

فقال رجل من بنى قابيل بن آدم : يا بنى قابيل ، إن لبنى شيث دواراً [3] يدورون حوله ويعظمونه ، وليس لكم شئ .. فنحت لهم صنماً ، فكان أول مَن عملها » .

فكانت القبور وتعظيمها والعكوف عليها ، أول ما أضل الشيطانُ به الناسَ.

ويقول الإمام البخارى فى نشأة الأصنام الأولى : « ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » - نقلاً عن ابن عباس رضى اللّه عنهما :

---

(١) كان الأولى أن يقول رحمه اللّه : « ثم أراد اللّه تعالى » ..

(٢) انظر : حياة محمد ، للدكتور محمد حسين هيكل - طبع دار المعارف ، سنة ١٩٨١ ، ص٩٩ - ١٠٠ .

(٣) أى مطافاً .

« هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا .. فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِخَ العلم عُبِدت » .

وفيهم يقول ابن جرير عن محمد بن قيس : « كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم .. فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صوَّرناهم لكان أشوق إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوَّروهم .. فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر ، فعبدوهم » .

ويقول ابن الجوزى فى كتابه « تلبيس إبليس » : « كان « ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » قوماً صالحين ، فماتوا فى شهر ، فجزع عليهم أقاربهم ، فقال رجل من بنى قابيل : يا قوم ، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ؟ غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً . فقالوا : نعم . فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان الرجل منهم يأتى أخاه وعمه وابن عمه ، فيعظمه ويسعى حوله ، حتى إذا ذهب القرن الأول - وعملت على عهد « يزد بن مهلاييل بن قينان بن شيث بن آدم » - ثم جاء قرن آخر ، فعظموهم أشد تعظيم من القرن الأول .. ثم جاء من بعدهم القرن الثالث ، فقالوا : ما عظَّم الأولون هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند اللّه عَزَّ وجَلَّ ، فعبدوهم وعظَّموا أمرهم .. واشتد كفرهم ، فبعث اللّه سبحانه وتعالى إليهم « إدريس » عليه السلام فدعاهم فكذَّبوه ، فرفعه اللّه مكاناً علياً ..

ولم يزل أمرهم يشتد ، حتى أدرك « نوح » فبعثه اللّه نبياً - وهو يومئذ ابن أربعة وثمانين سنة - فدعاهم إلى عبادة اللّه عَزَّ وجَلَّ مائة وعشرين سنة .. فعصوه وكذَّبوه ، فأمر اللّه تعالى أن يصنع الفُلك ، فعملها وفرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة ، وغرق مَن غرق ، ومكث بعد ذلك ثمانمائة وخمسين سنة » .

وروى ابن أبى حاتم ، عن عروة بن الزبير رضى الله عنه أنه قال : « ود ، ويغوث ، ويعوق ، وسواع ، ونسر » أولاد آدم ، وكان « ود » أكبرهم وأبرهم به » .

وذكر ابن كثير فى « البداية والنهاية » : « ذكروا عند أبى جعفر الباقر - وهو قائم يصلى - « يزيد بن المهلب » . قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب ، أما إنه قُتِل فى أول أرض عُبِد فيها غير الله تعالى . قال : ذكر « وداً » قال : كان رجلاً صالحاً ، وكان محبباً فى قومه ، فلما مات مكثوا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه فى صورة إنسان ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصوِّر لكم مثله فيكون فى ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا : نعم . فصوَّر لهم مثله .

قال : فوضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه ، فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ؟

فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله ، أولاد أولادهم ، فكان أول ما عُبِد غير الله « ود » الصنم الذى سموه « وداً » .

ونقول : حين بعث الله نوحاً عليه السلام ، كان القوم يعبدون « وداً » وإخوته « يغوث ويعوق وسواع ونسر » ، فقام نوح عليه السلام يدعو قومه إلى إفراد الله وحده بالعبادة والتعظيم ، وكان مما قاله لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .. فكذَّبوه ، وعصوه ، وجحدوه .. وأصروا على عبادة آلهتهم المصنوعة .

ولم يكن قوم نوح عليه السلام يجحدون وجود الله تعالى ، إذ جاء ردهم على

---

(١) الأعراف : ٥٩

دعوة نبيهم : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ (١) .. فهم لم يكونوا يعتقدون أن الألوهية قد توزعت فى تلك الأصنام دون وجود إله قاهر فوقها ، بل كان لديهم تصور واضح لوجود إله ، عبَّروا عنه بقولهم : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، فأقروا بوجود الله سبحانه .

كما لم يكونوا يجحدون كون الله تعالى خالق العالم ، فلم يقل واحد منهم إن الله ليس بربنا ، أو ليس هو خالق السموات والأرض ، أو خالقنا نحن ، أو ليس هو الذى يقوم بتدبير أمور السموات والأرض .. لم يقل واحد منهم هذا ، إنما كان اعتراضهم على أن يرسل الله تعالى رجلاً منهم وليس مَلَكاً !!

لقد كان القوم - فى واقع أمرهم - يؤمنون بأن الله وحده هو الخالق ، وأنه تعالى هو المدبر .. إلا أنهم اتخذوا آلهة أخرى إلى جواره ، جعلوا لها بعض التدخل فى تدبير نظام هذا العالم وتتعلق بها حاجاتهم .. فكانوا يفزعون إليها فى النوائب والشدائد ، ويلتمسون عندها الأمن من الخوف والنقص ، ويجدون أمنهم فى الاحتماء بجوارها .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ (٢) .

كما يقول جَلَّ شأنه : ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٣) .

كان القوم يؤمنون بوجود الله تعالى ، وأنه وحده الخالق المدبر .. وإنما اتخذوا هذه الأصنام أولياء لهم وحماة وشفعاء .. ولهذا تمسكوا بعبادتها - أى التوجه إليها بالسؤال - وقالوا : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ (٤) .

---

(١) المؤمنون : ٢٤
(٢) مريم : ٨١
(٣) يس : ٧٤
(٤) نوح : ٢٣

لقد اتخذ القوم أولياءهم أرباباً من دون اللّه عندما اتخذوهم وسطاء وشفعاء بينهم وبينه تعالى .. ولهذا يقول جَلَّ شأنه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (٢) .

لقد عبد القوم أصنامهم التى صنعوها بأيديهم تخليداً لأوليائهم - مع إيمانهم بوجود اللّه تعالى وأنه هو الخالق الرازق المدبر - وتمثلت عبادتهم تلك فى التوجه إليها بالسؤال والدعاء .. وهيهات أن تستجيب لهم لأنها بحكم تكوينها خاضعة للّه تعالى ومسخَّرة لأمره .. ولهذا يتحداهم اللّه سبحانه بأن يطلبوا منها أمراً ثم ينتظروا تحقيقه لهم ، ولكن هذا لن يكون أبداً ، لأن هذه الأصنام التى يطلبون منها النصر لا تستطيع نصرهم لأنها لا تملك نصر أنفسها ، فكيف - وهذا حالها - تملك النصر لهم !!

فلما أصر القوم على موقفهم ، عاقبهم اللّه تعالى بالطوفان : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً ﴾ (٣) .. ولم تنفعهم أصنامهم التى عبدوها من دون اللّه ، ولم تدفع عنهم قضاءه بالرغم من عبادتهم إياها .

أرسل اللّه تعالى الطوفان على قوم نوح عليه السلام عقاباً لهم على بغيهم وكفرهم وعبادتهم للأصنام ، حتى ارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعاً - وقيل : ثمانين ذراعاً - وعمَّ جميع الأرض وطولها والعرض ، سهلها وحزنها ، وجبالها وقفارها ورمالها ، ولم يبق على وجه الأرض مَن كان بها من الأحياء عين تطرف ، ولا صغير ولا كبير .

وحين انتهى أمر الطوفان بعد أن ابتلعت الأرض ماءها ، وأقلعت السماء ،

---

(١) الأعراف : ١٩٤ (٢) الأعراف : ١٩٧ (٣) نوح : ٢٥

وغيض الماء .. هبطت الأصنام التى كان قوم نوح يعبدونها من جبل « نوذ » ، وحملها الماء فى جريانها من أرض إلى أرض .. حتى قذفها إلى أرض جدة من بلاد الحجاز .. فلما نضب الماء وبقيت على الشاطئ سفت الريح عليها حتى وارتها ، إلى أن استخرجها « عمرو بن لحى » - ويكنى أبا ثمامة - وكان كاهناً له رئى من الجن ، فأتاه يوماً فقال له : « عجل المسير والظعن من تهامة، بالسعد والسلامة ، ائت صفا جدة ، تجد فيها أصناماً معدة ، فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب » [1] .. فأتى جده واستخرجها ، ثم حملها إلى تهامة ، ودعا إلى عبادتها فى موسم الحج ، فأجابه قومه وحملوها معهم إلى بلادهم .

فكان « ود » بوادى القرى بدومة الجندل تعبده « كلب » .

وكان « سواع » بأرض يقال لها « وهاط » من بطن نخلة يعبده مَن يليه من مُضَر .

وكان « يغوث » باليمن تعبده « مذحج » .

وكان « يعوق » بقرية يقال لها « خيوان » تعبده « همدان » ومَن والاها من اليمن .

وحلَّ « نسر » بأرض سبأ تعبده « حمير » ومَن والاها ، حتى هوَّدهم ذو نواس .

وظلت هذه الأصنام تُعبد فى تلك الأنحاء ، حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدمها وحطمها فيما حطم من أصنام .

ويحدثنا الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - عن تاريخ الأصنام فى بلاد العرب فيقول : « وكان أهل الجاهلية على ذلك فيهم بقايا من دين إبراهيم ، مثل تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف بعرفة ومزدلفة ، وإهداء البُدن .

---

(١) انظر : تلبيس إبليس ، لابن الجوزى ص ٩٣

وكانت نزار تقول فى إهلالها : « لَبَيْكَ اللّهم لَبَيْكَ ، لَبَيْكَ لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما مَلك » .. فأنزل الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

ثم يقول : « ومن أقدم أصنامهم « مناة » ، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت العرب تعظمه قاطبة ، ولم يكن أحد أشد تعظيماً له من الأوس والخزرج ، وبسبب ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللّه ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ... الآية (٢) . فبعث رسول الله ﷺ علياً رضى الله عنه فهدمها عام الفتح .

ثم اتخذوا « اللأت » فى الطائف ، قيل : إن أصل ذلك رجل كان يلت السويق للحاج ، فمات ، فعكفوا على قبره ، وكانت صخرة مربعة ، وكان سدنتها ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بيتاً ، فكان جميع العرب يعظمونها ، وكانت العرب تسمى « زيد اللأت » ، و « تيم اللأت » .. وهى فى موضع منارة مسجد الطائف .

فلما أسلمت ثقيف ، بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .

ثم اتخذوا « العُزَّى » ، وهى أحدث من اللأت . وكانت بوادى نخلة فوق ذات عرق ، وبنوا عليها بيتاً .. وكانوا يسمعون منها الصوت ، وكانت قريش تعظمها .

---

(١) الروم : ٢٨ (٢) البقرة : ١٥٨

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ، بعث خالد بن الوليد فأتاها فعضدها ، وكانت ثلاث سمرات ، فلما عضد الثالثة ، فإذا هو بحبشية [1] نافشة شعرها ، واضعة يدها على عاتقها ، فضرب بأنيابها وخلفها سادنها ، فقال خالد :

يا عزُّ كفرانك لا سبحانك إنى رأيتُ اللّه قد أهانـك

ثم ضربها ففلق رأسها ، فإذا هى حممة ، ثم قتل السادن .

وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وأعظمها « هُبَل » ، وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، وكانوا إذا اختصموا ، أو أرادوا سفراً أتوه ، فاستقسموا بالقداح عنده ، وهو الذى قال فيه أبو سفيان يوم أُحد : أعل هُبَل . فقال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللّه أعلى وأجل » .

وكان لهم « أساف » و « نائلة » ، قيل : أصلهما أن أسافاً رجل من جرهم ، ونائلة امرأة منهم ، فدخلا البيت ، ففجر بها ، فمسخهما اللّه حجرين ، فأخرجوهما فوضعوهما ليتعظ بهما الناس ، فلما طال الأمد وعُبِدت الأصنام : عُبِدا .

وكان لخثعم وبجيلة صنم يقال له « ذو الخلصة » بين مكة والمدينة ، فقال رسول اللّه ﷺ لجرير بن عبد اللّه البجلى : « ألا ترحينى من ذى الخلصة ؟ فسار إليها بأحمس ، فقاتلته همدان ، فظفر بهم وهدمه .

وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم فى مشارق الشام .

وكان لأهل كل واد بمكة صنم ، إذا أراد أحدهم سفراً كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به .

قال ابن إسحاق : وكان لخولان صنم يقال له « عم أنس » ، وفيهم أنزل اللّه تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَذَا لِلَّهِ

---

(١) أى جنية .

بزَعْمِهِمْ وَهَذَا لشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ للَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد ، قالت قريش : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٢) .

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة .. ولما فتح رسول الله ﷺ مكة ، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً ، فجعل يطعن فى وجوهها وعيونها ويقول : ﴿ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ، إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (٣) ، وهى تتساقط على رؤوسها ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت » (٤) .

* * *

ويصف فضيلة الشيخ محمد الغزالى - أمدَّ الله فى عمره وجزاه عن الإسلام خيراً - المجتمع الجاهلى وقت الرسالة ، فيقول فى وصفه البليغ : « كان أهل مكة ضعاف التفكير أقوياء الشهوات .

إذ لا صلة بين نضج الفكر ونضج الغريزة ، ولا بين تخلف الجماعات من الناحية العقلية وتخلفها من ناحية الأهواء والمطامع .

إن عرام الشهوات الذى نسمع عنه فى « باريس » و « هوليود » ، لا يزيد كثيراً عما وعته القرون الخالية من مفاسد الإنسان على ظهر الأرض .

وتقدم الحضارة لا أثر له من هذه الناحية إلا فى زيادة وسائل الإغراء فحسب .

---

(١) الأنعام : ١٣٦ (٢) سورة ص : ٥ (٣) الإسراء : ٨١

(٤) مختصر سيرة الرسول ، لمحمد بن عبد الوهاب ، نشر مكتبة السُّنَّة المحمدية سنة ١٩٥٦ ، ص٥١ وما بعدها .

وانظر حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ، والسيرة النبوية لابن هشام ، والبداية والنهاية لابن كثير .. وغيرها من كتب السيرة .

أما الشهوات نفسها ، فهى هى من قبل الطوفان ومن بعده .. الأثرة والجشع والرياء والتهارش والحقد ، وغير ذلك من ذميم الخصال ، ملأت الدنيا من قديم ، وإن تغيرت الأزياء التى تظهر بها على مر العصور .

وإن الإنسان ليرى فى القرية التافهة ، وفى القبيلة الساذجة من التنافس على المال والظهور ما يراه فى أرقى البيئات . وكثير من الناس تفوتهم أنصبة رائعة من العلم والفضل ، ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جداً من الاحتيال والتطلع والدس .

وقد تستغرب إذ ترى الشخص لا يحسن فهم مسألة قريبة من أنفه ، ومع ذلك فهو يفهم جيداً ألا يكون فلان أفضل منه .

من عهد نوح والحياة تجمع أمثلة شتّى لهذا الغباء وهذا العناد .

فعندما دُعِىَ قوم نوح إلى الإيمان بالله وحده ، كانت إجابتهم لنوح لا تهتم بموضوع الدعوة قدر اهتمامها بشخص الداعى وما سيحرزه من فضل بهذه الرسالة : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ من قَوْمه مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلآئِكَةً ﴾ (١) .

ما أكثر منافذ الهوى إلى الأعمال والأحكام ، وما أعقد مخلفات الهوى فى الأخلاق والأفكار ، والسير والسياسات .

وقد كانت « مكة » على عهد البعثة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم وكان الرجال الذين يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء ، وشلل الأفكار ، أو نمائهما فى ظل الهوى الجامح ولخدمته وحده .

كفرٌ بالله واليوم الآخر ، وإقبالٌ على نعيم الدنيا وإغراق فى التشبع منه .

رغبة عميقة فى السيادة والعلو ونفاذ الكلمة .. عصبيات طائشة تسالم

---

(١) المؤمنون : ٢٤

وتحارب من أجل ذلك .. تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادى والأدبى داخل هذا النطاق المحدود .

ومن الخطأ أن تحسب « مكة » يومئذ قرية منقطعة عن العمران فى صحراء موحشة ، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التى تمسك عليها الرمق .. كلا ، إنما شبعت حتى بطرت ، وتنازعت الكبرياء حتى تطامنت عليها ، وكثر فيها من تغلغل الإلحاد فى أغوار نفسه حتى عزّ إخراجه منه . فهم بين عمٍّ عن الصواب ، أو جاحد له .. وفى هذا المجتمع الذى لم ينل حظاً يذكر من الحضارة العقلية بلغ غرور الفرد مداه ، ووُجِد مَن يسابق فرعون عتوه وطغواه .

قال عمرو بن هشام [1] - معللاً كفره برسالة محمد ﷺ - : « زاحمنا بنى عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يُوحَى إليه ، واللّه لا نؤمن به ، ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه » !!

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول اللّه ﷺ : « لو كانت النبوة حقاً ، لكنتُ أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سناً ، وأكثر منك مالاً » !!

وهذه السفاهات العاتية ، لم تنفرد مكة بها ، فما كان كفر عبد اللّه بن أُبَىّ [2] فى المدينة إلا لمثل هذه الأسباب » .

ثم يقول : « إن ابن أُبَىّ غص بالإسلام ، لأنه رآه خطراً على زعامته ، وكذلك فعل أبو جهل من قبل .. ولئن كان هؤلاء قد ازوروا عن الحق بعد ما تبينوه ، إن هناك ألوفاً غيرهم لا يدركون قيلاً ، ولا يهتدون سبيلاً ، كرهوا الإسلام .. وحاربوه .

---

(١) هو أبو جهل لعنه اللّه .

(٢) رأس المنافقين فى المدينة ، وكانوا قد اجتمعوا على أن يتوجوه ملكاً عليهم ، فلما ظهر أمر الرسول ﷺ حقد عليه وناصبه العداء .

ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة ، والعداوات المقصودة أو المضللة ، وسط نماذج لا حصر لها من الضلال والغفلة ، أخذ الإسلام رويداً رويداً ينشر أشعته .. فأخرج أمة من الظلام إلى النور، بل جعلها مصباحاً وهاجاً يضئ ويهدى ، والدروس التى أحدثت هذا التحول الخطير والتى رفعت شعوباً وقبائل من السفوح إلى القمم ، ليست دواءً موقوتاً أو مخصوصاً ، بل هى علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذا التاثت ، وستظل ما بقى الإنسان وبقيت الحياة ، تكرم الإنسان وتجدِّد الحياة » [1] .

* * *

● وسطعت شمس الرسالة :

كان لا بد لليل الطويل أن ينجلى أمام تباشير الفجر .

كما كان لا بد للظلمة الحالكة أن تتلاشى أمام طلائع النور .

وجاء مبعث رسول الله ﷺ نهاراً يعقب ذلك الليل الطويل ، ونوراً يبدد تلك الظُلمة الحالكة .

وأذن الله تعالى للنور أن يسطع ، ولشمس الإسلام أن تطلع .. فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وليُخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد بإذن ربه ، وليجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

أشرقت شمس الإسلام من جزيرة العرب ليعم نورها الآفاق ، ولينتشر دفئها على العالَم كله ، بمبعث محمد بن عبد الله ﷺ ، نبى الرحمة ، ورسول الإنسانية .

وكان أول أمر الرسول ﷺ - بعد زواجه من خديجة رضى الله عنها - أن حَبَّبَ

---

(١) فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالى - طبع دار الكتب الإسلامية ، سنة ١٩٨٢ ، ص ٢٤ وما بعدها .

اللّه إليه الخلوة والتعبد لربه ، وكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد .

وبُغِّضت إليه الأوثان ودين قومه ، فلم يكن شئ أبغض إليه من ذلك .

فلما كمل له أربعون - وهى رأس الكمال ، ولها تُبعث الرسل - أشرقت عليه أنوار النبوة ، وأكرمه اللّه تعالى برسالته ، وبعثه إلى خلقه ، واختصه بكرامته ، وجعله أمينه بينه وبين عباده .

وكان مبعثه صلى اللّه عليه وسلم فى مُلك أبرويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان ملك الفُرس .

ولا خلاف أن مبعثه - صلى اللّه عليه وسلم - كان يوم الاثنين ، واخْتُلف فى شهر المبعث ، فقيل لثمان مضين من ربيع الأول سنة ٤١ من عام الفيل - وهذا قول الأكثرين .

وقيل : بل كان ذلك فى رمضان .. واحتج هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ ﴾ (١) .

قالوا : أول ما أكرمه اللّه تعالى بنبوته أنزل عليه القرآن ، وإلى هذا ذهب جماعة منهم يحيى الصصرى حيث يقول فى نونيته :

وأتت عليـــه أربعون فأشرقت شمس النبوة منه فى رمضان

والأوّلون قالوا : إنما كان أنزل القرآن فى رمضان جملة واحدة فى ليلة القَدْر إلى بيت العزة ، ثم أُنزل منجماً بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة .

وقالت طائفة : ﴿ أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ ﴾ : أى فى شأنه وتعظيمه وفرض صومه . وقيل : كان ابتداء المبعث فى شهر رجب (٢) .

---

(١) البقرة : ١٨٥

(٢) زاد المعاد ، لابن القيم - مرجع سابق - : ١٨/١

وتقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

وحُبِّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد [1] قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .

حتى جاءه الحق - وفى رواية : حتى فجئه الحق - وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : « فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ ﴾ فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [2] .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : « زمِّلونى .. زمِّلونى » ، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيتُ على نفسى » ، فقالت له خديجة : كلا ، أبْشِر .. فوالله ما يخذيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتُقْرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة رضى الله عنها حتى أتت به على ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العُزّى بن قصى ، وهو ابن عم خديجة أخى أبيها ، وكان امرءاً تنصَّر

---

(١) قوله : « وهو التعبد ... » مدرج فى الخبر ، وهو من تفسير الزهرى كما جزم به الطيبى ، وفى رواية البخارى من طريق يونس عنه فى التفسير ما يدل على الإدراج .

(٢) العلق : ١ - ٥

فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نُزِّل على موسى ، ياليتنى فيها جذعاً [1] ، ليتنى أكون فيها حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : « أوَ مُخْرِجِى هم » ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قَط بمثل ما جئتَ به إلا عودِىَ ، وإن يدركنى يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً » .

وفى رواية لابن هشام : « أن خديجة رضى الله عنها لما سمعت ما قاله لها الرسول ﷺ قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ ، أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنتِ صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له : فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة ، فقال : يابن أخى ، أخبرنى بما رأيتَ وسمعتَ ، فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه ، فقبَّل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله » [2] .

---

(١) أى الجَلد القوى ، والجذع من الرجال : الشاب الحدث .

(٢) سيرة ابن هشام - مرجع سابق - : ١٤٨/١

ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى فترة حتى حزن رسول اللّه ﷺ - فيما بلغنا [1] - حزناً غدا منه مراراً حتى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه تبدى له جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، إنك رسول اللّه حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك [2] .

قال ابن شهاب : وحدثنى مثل ذلك سعيد بن المسيب ، وكان فيما بلغنا : أول ما رأى أن اللّه عَزَّ وجَلَّ أراه رؤيا فى المنام ، فشق ذلك عليه ، فذكرها رسول اللّه ﷺ لامرأته خديجة بنت خويلد بن أسد ، فعصمها اللّه عَزَّ وجَلَّ من التكذيب ، وشرح صدرها بالتصديق ، فقالت : أَبْشِر فإن اللّه عَزَّ وجَلَّ لن يصنع بك إلا خيراً ..

ثم إنه خرج من عندها ، ثم رجع إليها ، فأخبرها أنه رأى بطنه شُقَّ ثم طهر وغسل ، ثم أعيد كما كان ، قالت : هذا واللّه خير فأبشر .

ثم استعلن له جبريل عليه السلام ، وهو بأعلى مكة ، فأجلسه على مجلس كريم معجب ، كان النبى ﷺ يقول : « أجلسنى على بساط كهيئة الدرنوك [3] فيه الياقوت واللؤلؤ ، فبشّره برسالة اللّه عَزَّ وجَلَّ حتى اطمأن النبى ﷺ فقال له

---

(١) قوله : « حتى حزن النبى ﷺ فيما بلغنا ... » هذا وما بعده من زيادات معمر على رواية عقيل ويونس ، وقال الحافظ فى الفتح : « ثم إن القائل « فيما بلغنا » : هو الزهرى ، ومعنى الكلام : أن فى جملة ما وصل إلينا من خبر رسول اللّه ﷺ فى هذه القصة ، وهو من بلاغات الزهرى وليس موصولاً .

(٢) رواه البخارى فى بدء الوحى وفى الأولياء ، باب : ﴿ وَاذْكُرْ فِى الكِتَابِ مُوسَىٰ ﴾ ، وفى تفسير سورة اقرأ ، وفى التعبير : « أول ما بدئ به رسول اللّه ﷺ الرؤيا الصالحة » ، ورواه مسلم فى الإيمان ، باب « الوحى إلى رسول اللّه ﷺ » .

(٣) الدرنوك : هو نحو من الطنفسة والبساط ، وجمعه : درانك ، ويقال إن أصله غير عربى .

جبريل عليه السلام : ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

قال ابن شهاب : وكانت خديجة رضى اللّه عنها أول مَن آمن باللّهِ وصدّق رسول اللّه ﷺ قبل أن تُفرض الصلاة .

قال : فقبل الرسول ﷺ رسالة ربه عَزَّ وجَلَّ ، واتبع الذى جاءه به جبريل عليه السلام من عند اللّه ، فلما قبل الذى جاءه من عند اللّه وانصرف منقلباً إلى بيته، جعل لا يمر على شجر ولا على حجر إلا وسلّم عليه ، فرجع مسروراً إلى أهله موقناً ، قد رأى أمراً عظيماً ، فلما دخل على خديجة قال : « أرأيتك الذى كنت أحدثك أنى رأيته فى المنام ، فإنه جبريل عليه السلام استعلن لى ، أرسله إلىّ ربى » ، فأخبرها بالذى جاءه من اللّه عَزَّ وجَلَّ وما سمع منه ، فقالت : « أبْشِر فواللّه لا يفعل اللّه بك إلا خيراً ، فاقبل الذى جاءك من اللّه ، فإنه حق وأبشر ، فإنك رسول اللّه » [1] .

ويقول البيهقى : « والذى ذُكر فيه من شق بطنه يحتمل أن يكون حكاية منه لما صنع به فى صباه ، ويحتمل أن يكون شُقّ مرة أخرى ، ثم مرة أخرى ، ثم مرة ثالثة حين عُرِجَ به إلى السماء » [2] .

*

وكان الوحى يأتى إلى رسول اللّه ﷺ بصور عديدة ..

أولاها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه صلى اللّه عليه وسلم ، فعن عائشة رضى اللّه عنها قالت : « أول ما بدئ به رسول اللّه ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » [3] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى : ١/٣٩٨ ، ٣٩٩

(٢) الرصف ، مرجع سابق : ١/٣١ - ٣٦

(٣) رواه البخارى ومسلم .

الثانية : ما كان يلقيه المَلَك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبى ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا يُنَال إلا بطاعته » .

الثالثة : أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يتمثل له المَلَك رجلاً فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقال له ، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشَعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تشهد أنْ لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدِّقه !!

قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقَدَر خيره وشره » . قال : صدقت .

قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : « ما المسئول عنها ، بأعلم من السائل » .

قال : فأخبرنى عن أمارتها . قال : « أن تلد الأمَة ربَّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » .

ثم انطلق . فلبثتُ ملياً ثم قال لى : « يا عمر ، أتدرى من السائل » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل يعلمكم دينكم » [1] .

---

(١) رواه مسلم ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أن تلد الأمَة ربَّتها - أى سيدتها - ومعناه : أن تكثر السرارى حتى تلد الأمَة السرية بنتاً لسيدها ، وبنت السيد فى معنى السيد ، وقيل غير ذلك ، والعالة : الفقراء . وقول عمر رضى الله عنه : ملياً - أى زمناً طويلاً وكان ذلك ثلاثاً .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت مع أبى عند رسول الله ﷺ ، وعنده رجل يناجيه ، فكان كالمعرض عن أبى ، فخرجنا من عنده ، فقال لى أبى: أى بنى ، ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عنى ؟ فقلت : يا أبت ، إنه كان عنده رجل يناجيه ، قال : فرجعنا إلى النبى ﷺ فقال أبى : يا رسول الله ، قلتُ لعبد الله كذا وكذا ، فأخبرنى أنه كان عندك رجل يناجيك ، فهل كان عندك أحد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وهل رأيته يا عبد الله » ؟ قلت : نعم . قال : « فإن ذلك جبريل ، وهو الذى شغلنى عنك » [1] .

الرابعة : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، فيلتبس به المَلَك حتى إن جبينه ليفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

فعن أبى أروى الدوسى قال : رأيت الوحى ينزل على النبى ﷺ وإنه على راحلته ، فترغو وتفتل يديها حتى أظن ذراعها ينقصم ، فربما بَرَكت ، وربما قامت مُوَتِّدة يديها حتى يُسَرَّى عنه من ثقل الوحى ، وإنه لينحدر منه مثل الجمان [2] .

فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علىّ - فيفصم عنى وقد وعيتُ ما قال ، وأحياناً يتمثل لى المَلَك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » [3] .

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٢٦٧٩) .
(٢) رواه ابن سعد .
(٣) رواه البخارى .

وعن عبد الرحمن بن عبد القارئ قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يُسمع عند وجهه دوى كدوى النحل ، فمكثنا ساعة ، فاستقبل القِبْلة ورفع يديه فقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » .. ثم قال : « لقد أنزلت علىّ عشر آيات ، مَن أقامهن دخل الجنة » ، ثم قرأ علينا : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر »[1] .

وجاء فى الخبر أن النبى ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها - يعنى صدرها - على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسَرَّى عنه[2] .

الخامسة : أنه يرى المَلَك فى صورته التى خُلِقَ عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى ذلك فى سورة النجم .

فعن ذر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾[3] قال : رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح[4] .

السادسة : ما أوحاه الله تعالى إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة .

السابعة : كلام الله تعالى منه إليه بلا واسطة مَلَك ، كما كلّم الله موسى بن عمران عليه السلام ، وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن ، وثبوتها للنبى ﷺ هو فى حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة ، وهى تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب ، وهذا على مذهب مَن يقول أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه تبارك وتعالى ، وهى مسألة خلاف بين السَلَف والخَلَف . وإن كان جمهور الصحابة - بل كلهم -

---

(١) رواه أحمد (٢٢٣) .

(٢) رواه القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل : ٥) .

(٣) النجم : ١٨ (٤) رواه مسلم .

مع عائشة رضى الله عنها كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمى إجماعاً للصحابة [1] .

ونحن مع الرأى القائل بأن رسول الله ﷺ لم ير الله تعالى ، لحديث مسروق رضى الله عنه الذى رواه مسلم وقال فيه : « كنتُ متكئاً عند عائشة رضى الله عنها فقالت : يا أبا عائشة ، ثلاث مَنْ تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ما هن ؟ قالت : مَن زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظرينى ولا تعجلينى ، ألم يقل الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ ﴾ [2] ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [3] .

فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التى خُلِق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض » .

فقالت : أوَ لم تسمع أن الله يقول : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ ؟ [4] .

أو لم تسمع أن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ ؟ [5] .

قالت : ومَنْ زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [6] .

---

(١) انظر زاد المعاد : ١٨/١ (٢) التكوير : ٢٣ (٣) النجم : ١٣
(٤) الأنعام : ١٠٣ (٥) الشورى : ٥١ (٦) المائدة : ٦٧

قالت : ومَن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على اللّه الفرية واللّه يقول : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (١) .

وعن عبد اللّه بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيتُ رسول اللّه ﷺ لسألته. فقال : عن أى شئ كنتَ تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيتَ ربك ؟ قال أبو ذر قد سألتُ فقال : « رأيت نوراً » .

وفى رواية : أنه صلى اللّه عليه وسلم قال : « نور .. أنّى أراه » (٢) .

* *

قلنا : إن أول ما بدئ به رسول اللّه ﷺ من أمر النبوة الرؤيا ، فكان صلى اللّه عليه وسلم لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .. قيل : وكان ذلك ستة أشهر ، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة ، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً لقول رسول اللّه ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم عن عبادة بن الصامت رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

ثم إن اللّه تعالى أكرم نبيه صلى اللّه عليه وسلم بالنبوة ، فجاءه المَلَك وهو بغار حراء وأنزل عليه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ فكانت أول ما نزل عليه - على نحو ما تقدم .

غير أن هناك رواية للأوزاعى قال فيها : سمعتُ يحيى يقول : سألتُ أبا سلمة : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فقلت : أو ﴿ اقْرَأْ ﴾ ؟ . فقال : سألت جابر بن عبد اللّه : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فقلت : أو ﴿ اقْرَأْ ﴾ ؟ قال جابر : أحدثكم ما حدثنا به رسول اللّه ﷺ قال : « جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيتُ جوارى نزلتُ فاستبطنت بطن الوادى

---

(١) النمل : ٦٥

(٢) رواه مسلم .

فنوديتُ فنظرتُ أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى فلم أر أحداً ، ثم نوديتُ فنظرتُ فلم أر أحداً ، ثم نوديتُ فرفعتُ رأسى فإذا هو - يعنى جبريل عليه السلام - على العرش فى الهواء ، فأخذتنى رجفة شديدة فأتيتُ خديجة فقلت : دثرونى ، فدثرونى فصبوا علىّ ماءً ، فأنزل اللّه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَانذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (١) .

وفى رواية عن أبى سلمة بن عبد الرحمن : أن جابر بن عبد اللّه الأنصارى - وكان من أصحاب رسول اللّه ﷺ كان يحدّث : قال رسول اللّه ﷺ - وهو يحدث عن فترة الوحى - قال فى حديثه : « فبينا أنا أمشى سمعتُ صوتاً من السماء فرفعتُ رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالساً على كرسى بين السماء والأرض » . قال رسول اللّه ﷺ : « فجئثت منه فرقاً فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، فدثرونى فأنزل اللّه تعالى وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ... الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (٢) - وهى الأوثان - قال : ثم تتابع الوحى (٣) .

فالقول بأن سورة المدثر هى أول ما نزل من القرآن هو قول انفرد به جابر رضى اللّه عنه ، والصحيح قول عائشة رضى اللّه عنها بأن أول ما أنزل عليه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ وذلك لوجوه :

أحدها : أن قوله صلى اللّه عليه وسلم : « ما أنا بقارئ » صريح فى أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً .

الثانى : الأمر بالقراءة فى الترتيب قبل الأمر بالإنذار ، فإنه إذا قرأ فى نفسه أنذر ما قرأه ، فأمره بالقراءة أولاً ثم بإنذار ما قرأه ثانية .

الثالث : أن حديث جابر وقوله : « أول ما أنزل من القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ إنما هو قول جابر ، أما عائشة رضى اللّه عنها فقد أخبرت عن خبره صلى اللّه عليه وسلم عن نفسه بذلك .

---

(١) رواه مسلم - والآيات من سورة المدثر : ١ - ٤

(٢) المدثر : ٥ (٣) رواه مسلم .

الرابع : أن حديث جابر الذى احتج به صريح فى أنه تقدَّم نزول المَلَك عليه أولاً قبل نزول : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فإنه قال : « فرفعتُ رأسى فإذا المَلَك الذى جاءنى بحراء ، فرجعت إلى أهلى فقلت : زملونى .. دثرونى ، فأنزل اللّه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، وقد أخبر أن المَلَك الذى جاء بحراء أنزل عليه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فدل حديث جابر على تأخر نزول : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، والحُجَّة فى روايته لا فى رأيه ، واللّه أعلم [1] .

ثم إن جبريل عليه السلام علَّم رسول اللّه ﷺ الوضوء ، والصلاة ركعتين ، فأتى خديجة رضى اللّه عنها فأخبرها فتوضأت وصلت ركعتين معه ، وقيل : كانت الصلاة الضحى والعصر .

وقد مرت دعوة الرسول ﷺ بخمس مراحل :

١ - النبوة .

٢ - إنذار عشيرته الأقربين .

٣ - إنذار قومه .

٤ - إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله ، وهم العرب قاطبة .

٥ - إنذار جميع مَن بلغه دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر .

وفى هذه المراحل الخمس للدعوة ، أقام صلى اللّه عليه وسلم ثلاث سنين يدعو إلى اللّه تعالى مستخفياً إلى أن نزل عليه : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [2] فأعلن صلى اللّه عليه وسلم بالدعوة ، وجاهر قومه بالعداوة ، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين حتى أذن اللّه لهم بالهجرتين .

دعا رسول اللّه ﷺ قومه إلى الإسلام ، فكان أول مَن أسلم من الرجال : أبو بكر ، وعلىّ ، وزيد بن حارثة .. واستجاب له نفر من الناس سراً حتى كثروا

---

(١) زاد المعاد : ١/١٩ - ٢٠ (بتصرف) .

(٢) الحجر : ٩٤

فظهر أمرهم ، والوجوه من كفار قريش غير منكرين لما يقول ، وكان إذا مرّ بهم يقولون : إن محمد يُكَلَّم من السماء . فلم يزالوا كذلك ، حتى أظهر عيب آلهتهم ، وأخبرهم أن آباءهم ماتوا على الكفر والضلال ، وأنهم فى النار ، فعادوه ، وأبغضوه ، وآذوه .

وكان أصحابه ، إذا صلوا انطلقوا إلى الأودية وصلوا سراً ، ولما أظهرت قريش عداوته حدب عليه أبو طالب عمه ونصره ومنعه ، ثم إن رسول الله ﷺ لما خاف كفار قريش اختفى هو ومَن معه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى إلى أن أسلم عمر رضى الله عنه فخرجوا ، ووثبت قريش على مَن ظهر فيها من المستضعفين أمثال بلال ، وعمار ، وصهيب وغيرهم فضربوهم . وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله .

* *

أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَانذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (١) .

فكانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة ، إيذاناً للرسول ﷺ بأن الماضى قد انتهى بمنامه وهدوئه وسلامه ، وأنه أمام عمل جليل يستدعى اليقظة والتشمير ، والإنذار والإعذار ، فليحمل الرسالة ، وليواجه الناس ، وليأنس بالوحى ، وليقوى على عنائه ، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

وعن جعفر بن عبد الله بن الحكم قال : « لما أنزل على رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) اشتد ذلك عليه ، وضاق به ذرعاً ، فجلس فى بيته كالمريض ، فأتته عماته يعدنه فقال : « ما اشتكيتُ شيئاً ، ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى » . فقلن له : فادعهم ، ولا تدع أبا لهب فيهم ، فإنه غير مجيبك .

---

(١) المدثر : ١ - ٥ (٢) الشعراء : ٢١٤

فدعاهم فحضروا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً ، فبادره أبو لهب وقال : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك ، فتكلم ودع الصباة ! واعلم أنه ليس بقومك بالعرب قاطبة طاقة ! وأنا أحق من أخذك ! فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمتَ على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتمدهم العرب فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به .

فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم فى ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : « الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له » .

ثم قال : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا إله إلاّ هو ، إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتُبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ... وإنها للجنة أبداً أو النار أبداً » .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا من معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقاً لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أُمِرْتَ به ، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة !! خذوا على يديه قبل أن يأخذكم غيركم .

فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا [1] .

* *

واستجاب للرسول ﷺ خاصته المقربين .. فكانت خديجة رضى الله عنها أول مَن آمن بالله وصدّق رسوله ﷺ . وكان أول ما قالته له عندما أنبأها نبأه :

---

(١) انظر : فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالى - مرجع سابق - ص ١٠٤

« أبشر ، فواللّه لقد كنتُ أعلم أن اللّه لن يفعل بك إلا خيراً ، وأشهد أنك نبى هذه الأمة الذى تنتظره اليهود ، وقد أخبرنى به ناصح غلامى وبحيرى الراهب ، وأمرنى أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة » .

وكان ذلك قبل ذهابها والرسول ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل .

*

وأول مَن أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصدِّيق رضى اللّه عنه . فعن ابن إسحاق : أن أبا بكر الصدِّيق رضى اللّه عنه لقى الرسول ﷺ فقال : أحق ما تقول قريش يا محمد ، من تركك آلهتنا ، وتسفيهك عقولنا ، وتكفيرك آباءنا ؟

فقال رسول اللّه ﷺ : « بلى ، إنى رسول اللّه ونبيه ، بعثنى لأُبلِّغ رسالته وأدعوك إلى اللّه بالحق ، فواللّه إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلى اللّه وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره والموالاة على طاعته » .

وقرأ - صلى اللّه عليه وسلم - عليه القرآن فأسلم وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقرّ بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدِّق .

يقول الرسول ﷺ : « ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ، ما عكم [1] عنه حين ذكرته ولا تردد فيه » .

وأول مَن أسلم من الغلمان : علىّ بن أبى طالب كرّم اللّه وجهه ، فإنه كان صغيراً دون البلوغ على المشهور .. يقول ابن إسحاق : إن علياً بن أبى طالب رضى اللّه عنه جاء إلى النبى ﷺ وهو يصلى مع زوجه « خديجة » رضى اللّه عنها فقال علىّ : يا محمد ، ما هذا ؟ قال : « دين اللّه الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك إلى اللّه وحده لا شريك له ، وإلى عبادته ، وأن تكفر باللاّت والعُزّى » .

---

(١) أى تلبث .

فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلستُ بقاضٍ أمراً حتى أحُدِّث به أبا طالب .

فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره . فقال له : « يا علىّ ، إذ لم تسمع فاكتم » . فمكث علىّ تلك الليلة ، ثم إن الله تعالى أوقع فى قلب علىّ الإسلام ، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ماذا عرضتَ علىّ يا محمد ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « تشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللاّت والعُزّى ، وتبرأ من الأنداد » .

ففعل علىّ كرّم الله وجهه وأسلم ، ومكث يأتيه على خوف من أبى طالب ، وكتم علىّ إسلامه ولم يظهره ، ومكث قريباً من شهر يختلف إلى رسول الله ﷺ ، وكان مما أنعم الله به على « علىّ » أنه كان فى حِجْر رسول الله ﷺ قبل الإسلام .

يقول مجاهد : « وكان مما أنعم الله به على « علىّ » أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة ، فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس - وكان من أيسر بنى هاشم - : « يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق حتى نخفف عنه من عياله » .. فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه ، فلم يزل مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً ، فاتبعه علىّ وآمن به وصدّقه » .

وعن يحيى بن عفيف قال : « جئتُ زمن الجاهلية إلى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فلما طلعت الشمس وحلّقت فى السماء وأنا أنظر إلى الكعبة ، أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء ، ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها ، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه ، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فخرّ الشاب ساجداً فسجدا معه . فقلت : يا عباس ، أمر عظيم ! فقال : أمر عظيم ، أتدرى مَن هذا ؟ فقلت : لا . فقال : هذا محمد بن عبد الله بن

عبد المطلب ابن أخى ، أتدرى مَن الغلام ؟ قلت : لا . قال : هذا علىّ بن أبى طالب ، أتدرى مَن هذه المرأة التى خلفهما ؟ قلت : لا . قال : هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخى .. وهذا حدثنى أن ربك رب السماء والأرض أمره بهذا الذى تراهم عليه ، وايم اللّه ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة .

وأول مَن أسلم من الموالى : زيد بن حارثة رضى اللّه عنه .

وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه قال : « أول مَن أظهر الإسلام سبعة : رسول اللّه ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد » .

فأما رسول اللّه ﷺ فمنعه اللّه بعمه ، وأما أبو بكر فمنعه اللّه بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم فى الشمس ، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا ، إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه فى اللّه ، وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شِعاب مكة وهو يقول : أحد أحد [1] .

وعن عائشة رضى اللّه عنها قالت : لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ، ألح أبو بكر على رسول اللّه ﷺ فى الظهور ، فقال : « يا أبا بكر ، إنّا قليل » .

فلم يزل أبو بكر رضى اللّه عنه يلح حتى ظهر رسول اللّه ﷺ ، وتفرّق المسلمون فى نواحى المسجد ، كل رجل فى عشيرته ، وقام أبو بكر فى الناس خطيباً ، ورسول اللّه ﷺ جالس ، فكان أول خطيب دعا إلى اللّه وإلى رسوله ﷺ .

---

(١) رواه الثورى عن مجاهد .

وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين ، فضُربوا فى نواحى المسجد ضرباً شديداً ، ووطئ أبو بكر وضُرِب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه .

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : واللّه لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة .

فرجعوا إلى أبى بكر ، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول اللّه ﷺ ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول اللّه ﷺ ؟ فقالت : واللّه ما لى علم بصاحبك . فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد اللّه ؟

فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد اللّه ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك . قالت : نعم .. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : واللّه إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم اللّه لك منهم .

قال : فما فعل رسول اللّه ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع . قال : فلا شئ عليكِ منها . قالت : سالم صالح . قال : أين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم .

قال : فإن للّه علىَّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِجل وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول اللّه ﷺ ، قال : فأكَبَ عليه رسول اللّه ﷺ فقبّله ، وأكَبَ عليه المسلمون ، ورقَّ له رسول اللّه ﷺ رقة شديدة .

فقال أبو بكر : بأبى وأمى يا رسول اللّه ، ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى اللّه ، وادع اللّه لها عسى اللّه أن يستنقذها بك من النار .

قال : فدعا لها رسول اللّه ﷺ ودعاها إلى اللّه فأسلمت [1] .

* *

قلنا : إن الرسول ﷺ والمؤمنون معه ظلوا يكتمون أمرهم ويؤدون صلاتهم سراً فى الأودية ، وإن الرسول ﷺ اختفى هو ومَن معه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى ، إلى أن أسلم عمر فخرجوا ..

ولقد كان إسلام عمر رضى اللّه عنه فتحاً ، فتح اللّه به على المسلمين ، كما كان إسلام حمزة بن عبد المطلب رضى اللّه عنه - من قبل - فتحاً ونصراً للمسلمين .

ويحدثنا ابن هشام عن إسلام حمزة رضى اللّه عنه فيقول : « مرّ أبو جهل برسول اللّه ﷺ عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول اللّه ﷺ ، ومولاة لعبد اللّه بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك .. ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى اللّه عنه أن أقبل متوشحاً قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلّم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش ، وأشد شكيمة .

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (بتصرف) .

فلما مرّ بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، قالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيتَ ما لقى ابن أخيك محمد آنفاً من أبى الحكم بن هشام : وجده ههنا جالساً فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد (صلى الله عليه وسلم) .

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معداً لأب جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة . ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرُدّ ذلك علىّ إن استطعت .

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً .

وتم حمزة رضى الله عنه على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله . فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه » [1] .

كما يحدثنا عن إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقول : « كان إسلام عمر أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام - رجل من قومه ، من بنى عدى بن كعب - قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفى بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن .

فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ١/١٧٤

رجال ونساء ، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبى قحافة الصدِّيق ، وعلىّ بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة .

فلقيه نعيم بن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً هذا الصابئ ، الذى فرَّق أمر قريش ، وسفَّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبَّ آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض ، وقد قتلتَ محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

قال : وأى أهل بيتى ؟

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها « طه » يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر ، تغيَّب خباب فى مخدع لهم ، أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما . فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التى سمعتُ ؟

قالا له : ما سمعتَ شيئاً .

قال : بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأُخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنّا نخشاك عليها .

قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك ، طمعت فى إسلامه ، فقالت له : يا أخى ، إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر .

فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها : ﴿ طٰهٰ * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَىٰ * الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (١) .

فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر ، واللّه إنى لأرجو أن يكون اللّه قد خصّك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : « اللّهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » ، فاللّهَ اللّهَ يا عمر .

فقال له عند ذلك عمر : فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم .

فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول اللّه ﷺ وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ ، فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول اللّه ﷺ وهو فزع ، فقال : يا رسول اللّه ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف .

---

(١) طه : ١ - ٨

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذَن له ، فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ : ائذن له ، فأذن له الرجل .

ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذه شديدة وقال : « ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعة » ، فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله . قال : فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم .

فتفرّق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم ، وقد عَزُّوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ ، وينتصفون بهما من عدوهم [1] .

عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة ، حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه » .

وعن مسعد بن كدام ، عن سعد بن إبراهيم ، قال : قال عبد الله بن مسعود : « إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه » [2] .

وعن ابن عمر قال : لما أسلم أبى عمر قال : أى قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجمحى . قال : فغدا عليه . قال عبد الله بن عمر : فغدوت أتبع أثره ، وأنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ، حتى جاءه فقال له : أعلمتَ يا جميل أنى قد أسلمتُ ودخلتُ فى دين محمد ؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٢١١/١ (٢) المرجع السابق : ٢١٠/١

قال : فواللّه ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر ، واتبعتُ أبى ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش - وهم فى أنديتهم حول الكعبة - ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

قال : يقول عمر من خلفه : كذب ، ولكنى قد أسلمت ، وشهدتُ أنْ لا إله إلاّ اللّه ، وأنّ محمداً عبده ورسوله .

وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم .

قال : وطلح [1] ، فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف باللّه أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل تركناها لكم ، أو تركتموها لنا .

قال : فبينما هم على ذلك ، إذ أقبل شيخ من قريش ، عليه حلة حبرة ، وقميص موشى ، حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، فقال : فمه ، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ! خلوا عن الرجل .

قال : فواللّه لكأنما كانوا ثوباً كُشط عنه . قال : فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبتِ ، مَن الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمتَ وهم يقاتلونك ؟ فقال : ذاك - أى بنىّ - العاص بن وائل السهمى .

وعن عبد الرحمن بن الحارث عن بعض آل عمر - أو بعض أهله - قال : قال عمر : لما أسلمتُ تلك الليلة ، تذكرتُ أى أهل مكة أشد لرسول اللّه ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت ، قال : قلت : أبو جهل - وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة أخت أبى جهل - قال : فأقبلتُ حين أصبحتُ حتى ضربتُ عليه بابه ، قال : فخرج إلىّ أبو جهل فقال : مرحباً وأهلاً بابن أختى ، فما جاء بك ؟ قال : جئتُ لأخبرك أنى قد آمنتُ باللّه وبرسوله محمد ، وصدّقتُ بما جاء به .

---

(١) أى تعب .

قال : فضرب الباب فى وجهى وقال : قبحك الله وقبح ما جئتَ به [1] .

وهكذا ترى أن إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما كان فتحاً ونصراً للمسلمين .

* * *

ويصف لنا فضيلة الشيخ محمد الغزالى - أمد الله عمره وبارك لنا فيه - رد فعل أهل مكة إزاء الدعوة الجديدة التى جاء بها رسول الله ﷺ فيقول : « قرر المشركون ألا يألوا جهداً فى محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه ، والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام ، ومنذ جهر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله ، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم ، انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين ، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ، واستباحت فى الحرم الآمن من دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت مقامهم تحملاً للضيم ، وتوقعاً للويل .

وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير ، قُصدَ بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية ، فرُمِيَ النبى ﷺ بتهم هازلة وشتائم سفيهة . وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تنشر عن الخصوم نكتاً لاذعة وصوراً مضحكة ، للحط من مكانتهم لدى الجماهير .

وبهذين اللونين من العداوة وقع المسلمون بين شقى الرحى .

فرسولهم يُنادَى بالمجنون : ﴿ وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [2] .

ويوصم بالسحر والكذب : ﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [3] .

---

(١) المرجع السابق : ٢١٤/١ (٢) الحجر : ٦ (٣) سورة ص : ٤

ويُشيِّع ويُستقبل منظرات ملتهمة ناقمة وعواطف منفعلة هائجة : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِم لَمَّا سَمِعُواْ الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ (١) .

وليس حظ سائر المسلمين بأفضل من هذه المعاملة ، فهم فى غدوهم ورواحهم محل التنذر واللمز : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ (٢) .

وانقلبت هذه الحرب إلى تنكيل وسفك دم بالنسبة إلى المستضعفين من المؤمنين ، فمَن ليست له عصبة تدفع عنه لا يعصمه من الهوان والقتل شئ ، بل نُحبس على الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط إعياءً » (٣) .

* * *

● قريش تبالغ فى أذى رسول الله :

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإبلاغ الرسالة إلى الخاص والعام ، وأمره بالصبر والاحتمال ، والإعراض عن الجاهلين المعاندين المكذِّبين بعد قيام الحُجَّة عليهم ، وارسال الرسول الأعظم إليهم . فقال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

وقال جَلَّ شأنه : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) القلم : ٥١ (٢) المطففين : ٢٩ - ٣٣

(٣) انظر : فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالى ، مرجع سابق ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٤) الشعراء : ٢١٤ - ٢٢٠ (٥) الزخرف : ٤٤

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (١) .. أى إن الذى فرض عليك وأوجب عليك بتبليغ القرآن ، لرادك إلى دار الآخرة - وهى المعاد - فيسألك عن ذلك . كما قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

● عن علىّ بن أبى طالب - كرّم اللّه وجهه - قال : لما نزلت هذه الآية على رسول اللّه ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قال رسول اللّه ﷺ : « عرفتُ أنى إن بادأت بها قومى رأيتُ منهم ما أكره ، فَصَمَتُّ ، فجاءنى جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذّبك بالنار » .

قال : فدعانى فقال : « يا علىّ ، إن اللّه قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، فاصنع لنا يا علىّ شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا عس (٣) لبن ، ثم اجمع لى بنى عبد المطلب » . ففعلت .

فاجتمعوا له يومئذ ، وهم أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون ، فيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب الكافر الخبيث . فقدمت إليهم تلك الجفنة ، فأخذ رسول اللّه ﷺ منها حذية (٤) فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها وقال : « كلوا باسم اللّه » . فأكل القوم حتى نهلوا عنه ، ما نرى إلا آثار أصابعهم ، واللّه إن كان الرجل ليأكل مثلها .. ثم قال رسول اللّه ﷺ : « اسقهم يا علىّ » ، فجئتُ بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وايم اللّه إن كان الرجل ليشرب مثله (٥) .

---

(١) القصص : ٨٥ (٢) الحجر : ٩٢ - ٩٣

(٣) العس : القدح الضخم . (٤) الحذية : القطعة .

(٥) وهذه إحدى معجزات الرسول ﷺ ، فشاة واحدة ، وصاع من طعام ، وعس من لبن قد كفى أربعين رجلاً حتى شبعوا ، وهو بالكاد يكفى رجل واحد أو اثنين أو ثلاثة ، وتأمل قول علىّ كرّم اللّه وجهه : وايم اللّه إن كان الرجل ليأكل مثلها ، وقوله : وايم اللّه إن كان الرجل ليشرب مثلها . لتدرك عظمة المعجزة مع كثرة الآكلين وقلة الطعام .

فلما أراد رسول اللّه ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب لعنه اللّه فقال : لهد ما سحركم صاحبكم ، فتفرقوا ولم يكلمهم رسول اللّه ﷺ .

فلما كان من الغد ، قال رسول اللّه ﷺ : « عد لنا بمثل الذى صنعتَ لنا بالأمس من الطعام والشراب ، فإن هذا الرجل قد بدر إلى ما سمعتَ قبل أن أكلم القوم » .

ففعلت ، ثم جمعتهم وصنع رسول اللّه ﷺ كما صنع بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وايم اللّه إن كان الرجل ليأكل مثلها . ثم قال رسول اللّه ﷺ : « اسقهم يا علىّ » فجئتُ بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول اللّه ﷺ أن يكلمهم ، بدره أبو لهب لعنه اللّه إلى الكلام ، فقال : لهد ما سحركم صاحبكم .. فتفرقوا ولم يكلمهم رسول اللّه ﷺ .

فلما كان من الغد ، قال رسول اللّه ﷺ : « يا علىّ ، عد لنا بمثل الذى كنت صنعتَ بالأمس من الطعام والشراب ، فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعتَ قبل أن أكلم القوم » .

ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول اللّه ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا ، وايم اللّه إن كان الرجل ليأكل مثلها وليشرب مثلها .

ثم قال رسول اللّه ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، إنى واللّه ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » [1] .

وزاد ابن عباس رضى اللّه عنهما - فى روايته عن رواية علىّ - بعد قوله صلى اللّه عليه وسلم : « وإنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » : « وقد أمرنى

---

(١) رواه البيهقى .

الله أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى » ؟ ، وكذا وكذا ..

قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت - أى علىّ كرم الله وجهه - ولإنى لأحدثهم سناً ، وأرمصهم عيناً ، وأعظمهم بطناً ، وأخمشهم ساقاً : أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه .

فأخذ برقبتى فقال : « إن هذا أخى ، وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوا » .

قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع » !

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما أنزل الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : « يا صباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجئ إليه ، وبين رجل يبعث رسوله .

فقال صلى الله عليه وسلم : « يا بنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، يابنى كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى » ؟

قالوا : نعم ..

قال : « فإنى نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب لعنه الله : تباً لك سائر اليوم ! أما دعوتنا إلا لهذا ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (١) .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ ، فعمّ وخصّ ، فقال : « يا معشر قريش : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى هاشم : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى عبد المطلب :

---

(١) رواه أحمد ، والآية من سورة المسد : ١

أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد : أنقذى نفسك من النار .. فإنى واللّه لا أملك لكم من اللّه شيئاً ، إلا أن لكم رَحِماً سأبلها ببلالها » [1] .

● وعن عائشة رضى اللّه عنها قالت : « لما نزل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ قام رسول اللّه ﷺ فقال : « يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من اللّه شيئاً ، سلونى من مالى ما شئتم » [2] .

واستمر الرسول ﷺ يدعو إلى اللّه تعالى ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عن ذلك صاد . يتبع الناس فى أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم ، وفى المواسم ومواقف الحج . يدعو مَن لقيه من حر وعبد ، وضعيف وقوى ، وغنى وفقير ، جميع الخلق فى ذلك عنده شرع سواء ، وتسلط عليه وعلى مَن اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوياء من مشركى قريش بالأذية القولية والفعلية .

وكان من أشد الناس عليه عمه أبو لهب - واسمه عبد العُزَّى بن عبد المطلب - وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية ، أخت أبى سفيان .

● عن ربيعة بن عباد الديلى - وكان جاهلياً فأسلم - قال : رأيتُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلاَّ اللّه تفلحوا » ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضئ الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب .. يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب [3] .

● وعن رجل من كنانة قال : رأيتُ رسول اللّه ﷺ بسوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلاَّ اللّه تفلحوا » ، وإذا رجل خلفه يسفى

---

(١) رواه أحمد ، والبلال : جمع بلل .
(٢) رواه مسلم وأحمد .
(٣) رواه أحمد .

عليه التراب ، وإذا هو أبو لهب ، وإذا هو يقول : يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللّات والعُزّىٰ » (١) .

وكان النبى ﷺ إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه - مثل عمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، وصهيب الرومى ، وبلال ، وأشباههم - فإذا مرّت بهم قريش استهزأوا بهم وقالوا : أهؤلاء قد مَنَّ اللّه عليهم من بيننا ؟ - يعنون جلساؤه - فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) .

وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وقال أبو جهل - لعنه اللّه - : واللّه لئن رأيتُ محمداً يصلى لأطأن على رقبته ، فبلغه أن رسول اللّه ﷺ يصلى ، فأتاه فقال : ألم أنهك عن هذه الصلاة ؟ فانتهره رسول اللّه ﷺ فقال : أتنهرنى وأنا أعزُّ أهل البطحاء ؟ ، فنزل قول اللّه تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ ﴾ (٤) .

وفى رواية لمسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال أبو جهل : يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم . فقال : واللاّت والعُزّى ، لئن رأيته لأطأن على رقبته ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيديه ، وقال : بينى وبينه خندق من نار وهول وأجنحة .

فقال رسول اللّه ﷺ : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » . فأنزل اللّه تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (٥) .

* *

---

(١) رواه البيهقى .
(٢) الأنعام : ٥٣
(٣) النحل : ٤١
(٤) العلق : ٩ - ١٠
(٥) العلق : ٦ - ٧

وهذه إحدى المعجزات فى حماية اللّه تعالى لرسوله ﷺ .

● وعن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « جاءت قريش إلى أبى طالب فقالوا : إن ابن أخيك هذا قد آذانا فى نادينا ومسجدنا فانهه عنا . فقال : ياعقيل ، انطلق فائتنى بمحمد .

فانطلقتُ فاستخرجته من كنس - أو قال : خنس - يقول : بيت صغير ، فجاء به فى الظهيرة فى شدة الحر .

فلما أتاهم قال : إن بنى عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم فى ناديهم ومسجدهم ، فانته عن أذاهم .

فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ، فقال : « ترون هذه الشمس » ؟ قالوا : نعم . قال : « فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة »

فقال أبو طالب : واللهِ ما كذب ابن أخى قط ، فارجعوا » (١) .

● وعن عقبة بن المغيرة بن الأخنس : « أنه حدث أن قريشاً حين قالت لأبى طالب هذه المقالة ، بعث إلى رسول الله ﷺ فقال : يابن أخى ، إن قومك قد جاءونى وقالوا كذا وكذا ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك .

فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه ، وأنه خاذله ومسلمه ، وضعف عن القيام معه ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، ما تركتُ هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه » .

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى . فلما ولّى قال له حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله ﷺ : يابن أخى ، فأقبل عليه فقال : امض على أمرك وافعل ما أحببت ، فواللهِ لا أسلمك لشئ أبداً » (٢) .

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ .

(٢) رواه البيهقى .

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما - فى قصة طويلة جرت بين مشركى مكة وبين رسول الله ﷺ - : « ... فلما قام رسول الله ﷺ قال أبو جهل بن هشام : يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا .. وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ، فإذا سجد فى صلاته فضختُ به رأسه ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

فلما أصبح أبو جهل لعنه الله ، أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره . وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، وكان قِبْلته الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركنين الأسود واليمانى ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منبهتاً ممتقعاً لونه مرعوباً ، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يديه . وقامت إليه رجال من قريش فقالوا له : ما بك يا أبا الحكم ؟ فقال : قمتُ إليه لأفعل ما قلتُ لكم البارحة ، فلما دنوتُ منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، والله ما رأيتُ مثل هامته ولا قصرته [1] ، ولا أنياب لفحل قط ، فهمَّ أن يأكلنى [2] .

قال ابن إسحاق : فذُكِر لى أن رسول الله ﷺ قال : « ذلك جبريل ، ولو دنا منه لأخذه » .

● وعن عبد الله قال : ما رأيتُ رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد ، فإنه كان يصلى ورهط من قريش جلوس ، وسلا جزور [3] قريب منه . فقالوا : مَنْ يأخذ هذا السلا فيرميه على ظهره ؟ فقال عقبة بن أبى معيط : أنا .

---

(١) القصرة : أصل العنق .

(٢) وهى معجزة أخرى فى حماية الله تعالى لرسوله ﷺ وحفظه وكلاءته .

(٣) السلا : هو الذى يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة .

فأخذه فألقاه على ظهره ، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره ، فقال رسول الله ﷺ : « اللّهم عليك بهذا الملأ من قريش ، اللّهم عليك بعقبة بن ربيعة ، اللّهم عليك بشيبة بن ربيعة ، اللّهم عليك بأبى جهل بن هشام ، اللّهم عليك بعقبة بن أبى معيط ، اللّهم عليك بأمية بن خلف » .

قال عبد الله : فلقد رأيتهم قُتلوا يوم بدر جميعاً ، ثم سُحِبوا إلى القليب غير أمية ، فإنه كان رجلاً ضخماً فتقطع (١) .

وفى بعض ألفاظ الصحيح : « أنهم لما فعلوا ذلك استضحكوا حتى جعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك » .

وفيه : « أن فاطمة رضى الله عنها لما ألقته عنه أقبلت عليهم فسبتهم ، وأنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من صلاته رفع يديه يدعو عليهم ، فلما رأوا ذلك سكن عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، وأنه صلى الله عليه وسلم دعا على الملأ منهم جملة ، وعيّن فى دعائه سبعة - وقع فى أكثر الروايات تسمية ستة منهم وهم : عقبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبو جهل بن هشام ، وعقبة بن أبى معيط ، وأمية بن خلف - قال ابن إسحاق : ونسيتُ السابع .

يقول ابن هشام : قلت : وهو عمارة بن الوليد ، وقع تسميته فى صحيح البخارى .

● وعن عروة قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : ما أكثر ما رأيتَ قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته ؟

فقال : لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً فى الحِجْر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفّه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرّق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ، وصبرنا معه على أمر عظيم .. أو كما قالوا .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .

قال : فبينما هم فى ذلك طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول ، فعرفتُ ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ، فمضى ، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتها فى وجهه ، فمضى . فمرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فقال : « أتسمعون يا معشر قريش ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح » .

فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفأه [1] حتى إنه ليقول : انصرف أبا القاسم راشداً فما كنتَ بجهول . فانصرف رسول الله ﷺ .

حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحِجْر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم منه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه !

فبينما هم على ذلك ، طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ؟! - لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول رسول الله ﷺ : « نعم ، أنا الذى أقول ذلك » .

ولقد رأيتُ رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه ، وقام أبو بكر يبكى دونه ويقول : ويلكم ، ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ؟ [2] .

ثم انصرفوا عنه .. فإن ذلك لأكبر ما رأيتُ قريش بلغت منه قط [3] .

وتقول أم كلثوم بنت أبى بكر : رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جبذوه بلحيته ، وكان رجلاً كثير الشعر .

● وفى رواية للبخارى عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى بأشد شئ صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال : بينما النبى ﷺ يصلى فى حِجْر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن

---

(١) أى يترضاه .
(٢) غافر : ٢٨
(٣) رواه البيهقى .

النبى ﷺ وقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ .. الآية .

● وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أوذيتُ فى الله وما يُؤذى أحد ، وأُخفتُ فى الله وما يُخاف أحد ، ولقد أتت علىّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لى ولبلال ما يأكله ذو كبد ، إلا ما يوارى إبط بلال » [1] .

* *

● ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ يتزايد أمره ويقوى ، ورأوا ما صنع أبو طالب به ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد ، فقالوا : يا أبا طالب ، هذا أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه وادفع إلينا هذا الذى خالف دينك ودين آبائك فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

فقال : بئس ما تسومونني ، تعطونى ابنكم أربيه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟

فقال المطعم بن عدى بن نوفل : يا أبا طالب ، قد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص منك بكل طريق .

قال : واللّه ما أنصفتمونى ، ولكنك أجمعتَ على خذلانى ، فاصنع ما بدا لك .

وقال أشراف مكة لأبى طالب : إما أن تخلى بيننا وبينه فنكفيكه ، فإنك على مثل ما نحن عليه ، أو أجمع لحربنا ، فإنّا لسنا بتاركى ابن أخيك على هذا حتى نهلكه أو يكف عنا ، فقد طلبنا التخلص من حربك بكل ما نظن أنه يخلص .

---

(١) رواه أحمد والترمذى .

فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يابن أخى ، إن قومك جاءونى، وقالوا كذا وكذا ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك .

فقال رسول الله ﷺ : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، ما تركتُ هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فى طلبه » .

فقال : امض على أمرك ، فوالله لا أسلمك أبداً .

ودعا أبو طالب أقاربه إلى نُصرته ، فأجابه بنو هاشم وبنو المطلب ، غير أبى لهب .

ولما اجتمعوا - مؤمنهم وكافرهم - على منع رسول الله ﷺ ، اجتمعت قريش ، فأجمعوا أمرهم على أن لا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل . وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق : « أن لا يقبلوا من بنى هاشم صلحاً أبداً ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل » .

فأمرهم أبو طالب أن يدخلوا شِعْبه ، فلبثوا فيه ثلاث سنين .

واشتد عليهم البلاء ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركون طعاماً يدخل مكة ، ولا بيعاً إلا بادروا فاشتروه ، ومنعوه أن يصل شئ منه إلى بنى هاشم ، حتى كان يُسمع أصوات نسائهم يتضاغون من وراء الشِعْب من الجوع .

واشتدوا على مَن أسلم ممن لم يدخل الشِعْب ، فأوثقوهم ، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً .

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم ، أمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك مَن أراد اغتياله .

فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمره أن يأتى أحد فرشهم .

ثم بعد ذلك مشى هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى ، وكان يصل بنى هاشم فى الشِعْب خفية بالليل بالطعام - مشى إلى زهير بن أبى أمية المخزومى - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - وقال : يا زهير ، أرضيتَ أن تأكل الطعام ونشرب الشراب ، وأخوالك بحيث تعلم ؟

فقال : ويحك ، فما أصنع وأنا رجل واحد ؟ أما واللّهِ لو كان معى رجل آخر لقمتُ فى نقضها . قال : أنا .

قال : ابغنا ثالثاً . قال : أبو البخترى بن هشام .

قال : ابغنا رابعاً . قال : زمعة بن الأسود .

قال : ابغنا خامساً . قال : المطعم بن عدى .

قال : فاجتمعوا عند الحجون ، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة ، فقال زهير : أنا أبدأ بها .

فجاءوا إلى الكعبة - وقريش محدقة بها - فنادى زهير : يا أهل مكة ، إنُا نأكل الطعام ، ونشرب الشراب ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، واللّهِ لا أقعد حتى تُشَق هذه الصحيفة الظالمة .

فقال أبو جهل : كذبتَ ، واللّهِ لا تُشق .

فقال زمعة : أنت واللّهِ أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كُتِبت .

وقال أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتِب فيها ولا نقار عليه .

فقال المطعم بن عدى : صدقتما ، وكذب مَن قال غير ذلك ، نبرأ إلى اللّه منها ومما كُتِب فيها .

وقال هشام بن عمرو نحو ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قد قُضِىَ بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان .

وبعث الله على صحيفتهم الأرضة ، فلم تترك اسماً لله إلا لحسته ، وبقى ما فيها من شرك وظلم وقطيعة ، وأطلع الله رسوله على الذى صنع بصحيفتهم ، فذكر ذلك لعمه . فقال : لا والثواقب ، ما كذبتنى .

فانطلق يمشى بعصابة من بنى عبد المطلب ، حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش ، فلما رأوهم ظنوا أنهم خرجوا من شدة الحصار ، وأتوا ليعطوهم رسول الله ﷺ ، فتكلم أبو طالب فقال : قد حدث أمر ، لعله أن يكون بيننا وبينكم صلحاً ، فائتوا بصحيفتكم .

وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها ، فلا يأتون بها .

فأتوا بها معجبين ، لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم . قالوا : قد آن لكم أن تفيئوا وترجعوا خطراً لهلكة قومكم .

فقال أبو طالب : « لأعطينكم أمراً فيه نصف ، إن ابن أخى أخبرنى - ولم يكذبنى - أن الله عَزَّ وجَلَّ برئ من هذه الصحيفة التى فى أيديكم ، وأنه محا كل اسم له فيها ، وترك فيها غدركم وقطيعتكم .

فإن كان ما قال حقاً ، فوالله لا نسلمه إليكم حتى نموت عن آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه » .

قالوا : قد رضينا . ففتحوا الصحيفة فوجودها كما أخبر فقالوا : هذا سحر من صاحبكم . فارتكسوا وعادوا إلى شر ما هم عليه .

فتكلم عند ذلك النفر الذين تعاقدوا ، وخرج بنو هاشم من شِعْبهم وخالطوا الناس . وكان خروجهم فى سنة ستة عشر من النبوة .

واشتد البلاء على رسول الله ﷺ من قومه وتجرأوا عليه ، وكاشفوه بالأذى ، فأرادوا قتله فمنعهم الله من ذلك .. وتذامرت قريش بينهم على مَن فى القبائل منهم من أصحاب الرسول ﷺ الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على مَن فيهم من المسلمين يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم .

واستمرت قريش فى عداوتها لرسول الله ﷺ ومَن أسلم معه منهم ، فأغرت به سفهاءهم فكذّبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون . ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، مباد لهم بما يكرهون بعد عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم .

ثم رأت قريش أن تنتهج نهجاً جديداً ، فاتجهت إلى الترغيب علّه ينجح فى فتنة الرسول ﷺ عن دعوته بعد أن فشل أسلوب الترهيب الذى جرّبوه من قبل .

● فعن محمد بن كعب القرظى ، قال : حُدِّثتُ أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ - وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السبطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم ، فرّقتَ به جماعتهم وسفّهتَ به أحلامهم ، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم ، وكفّرتَ به مَنْ مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

قال : فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد ، أسمع » .

قال : يابن أخى ، إن كنتَ إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ تريد به مُلْكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوَى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ﷺ يستمع منه ، قال : « أفرغتَ يا أبا الوليد » ؟ قال : نعم . قال : « فاسمع منى » ، قال : أفعل .

فقال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ (١) .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه .

فلما سمعها منه عتبة ، أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : « قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف باللهِ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعتُ مثله قط ، واللهِ ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فواللهِ ليكونن لقوله الذى سمعتُ منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فمُلْكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك واللهِ يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم (٢) .

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث (بن كلدة) ، أخو

---

(١) فصلت : ١ - ٥

(٢) السير لابن هشام : ١/١٧٥

بنى عبد الدار ، وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة ابن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، أو مَن اجتمع منهم .

قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه . فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فائتهم .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم .

فقالوا له : يا محمد ، إنّا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلتَ على قومك ، لقد شتمتَ الآباء ، وعِبْتَ الدين ، وشتمتَ الآلهة ، وسفّهتَ الأحلام ، وفرّقتَ الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك .

فإن كنتَ إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنتَ إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نُسوِّدك علينا .

وإن كنتَ تريد به مُلْكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً - فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيه .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بى ما تقولون ، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا المُلك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلّغتكم رسالات ربى،

ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر اللّه حتى يحكم اللّه بينى وبينكم » .. أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم .

قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماءً ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليُسيِّر عنا هذه الجبال التى قد ضيَّقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليُفجِّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق . فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، فإن صدّقوك وصنعتَ ما سألناك صدّقناك ، وعرفنا به منزلتك من اللّه ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

فقال لهم صلوات اللّه وسلامه عليه : « ما بهذا بعثتُ إليكم ، إنما جئتكم من اللّه بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أُرسِلتُ به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر اللّه تعالى ، حتى يحكم اللّه بينى وبينكم » .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا ، فخذ لنفسك ، سَلْ ربك أن يبعث معك مَلَكاً يصدِّقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنتَ رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول اللّه ﷺ : « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بُعثتُ إليكم بهذا ، ولكن اللّه بعثنى بشيراً ونذيراً - أو كما قال - فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر اللّه حتى يحكم اللّه بينى وبينكم » .

قالوا : فأسْقط السماء علينا كِسَفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنَّا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

قال : فقال رسول اللّه ﷺ : « ذلك إلى اللّه ، إن شاء أن يفعله بكم فعل » .

قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا ، إذ لم تقبل منك ما جئتنا به ؟!

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له « الرحمن » ، وإنَّا واللّه لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنَّا واللّه لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك ، أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهى أبناء اللّه .

وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا باللّه والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول اللّه ﷺ ، قام عنهم ، وقام معه عبد اللّه بن أبى أمية ابن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمته ، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب - فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من اللّه كما تقول ، ويصدِّقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من اللّه فلم تفعل ، ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوِّفهم به من العذاب ، فلم تفعل.

فواللّه لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك بأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم اللّه ، لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أنى أُصدِّقك .

ثم انصرف عن رسول اللّه ﷺ ، وانصرف رسول اللّه ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه .

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ . قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا . وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته فضختُ به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نسلمك لشئ أبداً ، فامض لما تريد .

فلما قال لهم ذلك أبو جهل ، قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى فقال :

« يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم .

وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم .

وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه .

وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه .

يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم » [1] .

وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وبعث مَن مضى من آبائهم من الموتى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَىٰ ، بَل للَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ [2] أى لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

---

(١) السيرة لابن هشام : ١/١٧٦ وما بعدها .

(٢) الرعد : ٣١

وأنزل عليه من قولهم : خذ لنفسك ، ما سألوه أن يأخذ لنفسه ، أن يجعل له جناناً وقصوراً وكنوزاً ، ويبعث مَلكاً يصدّقه بما يقول ، ويرد عنه : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَّسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِى إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ ﴾ - أى من أن تمشى فى الأسواق وتلتمس المعاش - ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ (١) .

وأنزل عليه فى ذلك من قولهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ (٢) أى جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا ، ولو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخافوا لفعلت .

وأنزل الله تعالى عليه فيما قال عبد الله بن أمية : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلا بَشَراً رَّسُولاً ﴾ (٣) .

---

(١) الفرقان : ٧ - ١٠ (٢) الفرقان : ٢٠ (٣) الإسراء : ٩٠ - ٩٣

والينبوع : ما نبع من الماء من الأرض وغيرها ، والكسف : القطع من العذاب ، والقبيل : بكون مقابلة ومعاينة ، والزخرف : الذهب .

وأنزل عليه من قولهم : إنّا قد بلغنا أنك يُعلّمك رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ، ولن نؤمن به أبداً : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّى لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (١) .

وأنزل عليه فيما قال أبو جهل بن هشام ، وما همّ به : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ (٢) .

وأنزل عليه فيما عرضوا من أموالهم : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِى إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٣) .

فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدّث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين إتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، أى اجعلوه لغواً وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم .

وهكذا لم يفلح مع رسول الله ﷺ أسلوب الإغراء ، كما لم يفلح معه من قبل أسلوب البطش والتنكيل ، فجُنّ جنون قريش فعدوا على مَن أسلم واتبع الرسول ﷺ من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين ، فجعلوا

---

(١) الرعد : ٣٠.

(٢) العلق : ٩ - ١٩ ، والنادى : المجلس الذى يجتمع فيه القوم ويقضون أمورهم .

(٣) سبأ : ٤٧

يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، مَن استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم مَن يُفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم مَن يصلب لهم ، ويعصمه اللّه منهم .

❁

وكان أشد الناس عذاباً بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر .

أما بلال فكان لبعض بنى جمح ، مولداً من مولديهم ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللاّت والعُزّى . فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد .

وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يُعذّب بذلك ، وهو يقول : أحد أحد ، فيقول : أحد أحد واللّهِ يا بلال ، ثم يقبل على أمية بن خلف ، ومَن يصنع ذلك به من بنى جمح ، فيقول : أحلف باللّهِ لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً .

حتى مرّ به أبو بكر الصدِّيق رضى اللّه عنه يوماً ، وهم يصنعون ذلك به ، وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح ، فقال لأمية بن خلف : ألا تتقى اللّه فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ . قال : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى ، فقال أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به . قال : قد قبلت ، فقال : هو لك .

فأعطاه أبو بكر الصدِّيق رضى اللّه عنه غلامه ذلك ، وأخذه فأعتقه .

وأما عمار .. فكانت بنو مخذوم يخرجون به ، وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول اللّه ﷺ فيقول : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة .

فأما أمه فقتلوها ، وهى تأبى إلا الإسلام .

وكان أبو جهل لعنه الله هو الذى يغرى بهم فى رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة ، أنّبه وأخزاه وقال : تركتَ دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك .

وإن كان تاجراً قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ..

وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنهم كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضُرّ الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللاّت والعُزّى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له : أهذا الجمل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم .. افتداءً مما يبلغون من جهده .

* *

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه . فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام .

وكان جميع مَن لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين - سوى أبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً وولِدوا بها - ثلاثة وثمانون رجلاً ..

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جَلْدين إلى النجاشى فيردهم عليهم ، ليفتنوهم فى دينهم ، ويخرجوهم من دارهم ، التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها ، فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو ابن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ، ثم بعثوهما إليه فيهم .

ولكن الله تعالى منع عباده المؤمنين ، وحماهم فلم يسلمهم النجاشى إليهما ، فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به .

ولما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة على قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وردهما النجاشى بما يكرهون ، وأسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة حتى عازوا قريشاً حتى صلُّوا عند الكعبة .

ثم جعلت قريش حين منع الله تعالى رسوله منها ، وقام عمه وقومه من بنى هاشم وبنى المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه . وجعل القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم ، وفيمن نصب لعداوته منهم ، ومنهم مَن سمى لنا ، ومنهم مَن نزل فيه القرآن فى عامة مَن ذكر الله من الكفار .

فكان ممن سمى لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن : عمه أبو لهب بن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل السهمى ، وأبو جهل بن هشام ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة ، وعبد الله بن الزبعرى ، والأخنس بن شريق ، وأبَىّ بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط ، والأسود بن المطلب .

وكان رسول الله ﷺ إذا جلس فى المسجد ، فجلس إليه المستضعَفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث، وصهيب ، وأشباههم من المسلمين هزئت بهم قريش . وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون . أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصَّهم الله دوننا . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ

فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

ومرّ رسول اللّه ﷺ يوماً بالوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وبأبى جهل بن هشام ، فهمزوه واستهزأوا به ، فغاظه ذلك . فأنزل اللّه تعالى عليه فى ذلك من أمرهم : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢) .

وأقام رسول اللّه ﷺ على أمر اللّه تعالى صابراً محتسباً ، مؤدياً إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى . وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر من قومهم ، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم .

فمن بنى أسد بن عبد العُزّى بن قصى بن كلاب : الأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة ، وكان رسول اللّه ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به فقال : « اللّهم أعم بصره ، وأثكله ولده » .

ومن بنى زهرة بن كلاب : الأسود بن عبد يغوث .

ومن بنى مخزوم : الوليد بن المغيرة .

ومن بنى سهم بن عمرو : العاص بن وائل بن هشام .

ومن بنى خزاعة : الحارثة بن الطلاطلة بن عمرو .

---

(١) الأنعام : ٥٢ - ٥٤ (٢) الأنعام : ١٠

فلما تمادوا فى الشر ، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء ، أنزل الله تعالى عليه : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ ، وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فمرّ به الأسود بن المطلب ، فرمى فى وجهه بورقة خضراء ، فعمى . ومرّ به الأسود بن عبد يغوث ، فأشار إلى بطنه ، فاستسقى فمات به حبناً [2] . ومر به الوليد بن المغيرة ، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنين ، وهو يجر سبله [3] ، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له ، فتعلق سهم من نبله بإزاره ، فخدش فى رجله ذلك الخدش ، وليس بشئ ، فانتقض به [4] فقتله . ومرّ به العاص بن وائل ، فأشار إلى أخمص رجله [5] وخرج على حمار له يريد الطائف ، فربض به على شبارقة [6] ، فدخلت فى أخمص رجله شوكة فقتلته . ومرّ به الحارث بن الطلاطلة ، فأشار إلى رأسه ، فامتحض [7] قيحاً ، فقتله .

* * *

ثم إن خديجة رضى الله عنها وأبا طالب ماتا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب ، وكانت رضى الله عنها وزير صدق على الإسلام ، وكان صلى الله عليه وسلم يسكن إليها ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

قال رسول الله ﷺ : « ما زالت قريش كاعة [8] عنى حتى مات عمى أبو طالب » .

---

(١) الحجر : ٩٤ - ٩٦ (٢) الحبن : انتفاخ البطن من داء .

(٣) السبل : فضول الثياب . (٤) انتقض الجرح : إذا تجدد بعد ما برئ .

(٥) الأخمص من باطن القدم : ما لم يصب الأرض .

(٦) الشبارقة : شجرة عالية . (٧) امتحض : تحرك القيح فى رأسه وانتشر .

(٨) كع : هين .

وكانت وفاة أبى طالب عقيب نقض صحيفة قريش بأيام ، فى أول ذى القعدة - وقيل : النصف من شوّال - فى السنة العاشرة من المبعث ، وكان عمره بضعاً وثمانين سنة .

ثم توفيت خديجة رضى اللّه عنها بعده بثلاثة أيام ، وقيل : بشهر ، وقيل كان بينهما شهر وخمسة أيام ، وقيل : خمسون يوماً ، واللّه أعلم . ودفنها رسول اللّه ﷺ بالحجون [1] ، ولم تكن الصلاة على الجنائز يومئذ .

وقيل : إنها ماتت قبل أبى طالب ، وكان عمرها خمساً وستين سنة ، وكان مقامها مع رسول اللّه ﷺ بعد ما تزوجها أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر ، وكان موتها قبل الهجرة بثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف . وقيل : قبل الهجرة بسنة .

قال عروة : ما ماتت خديجة إلا بعد الإسراء ، وبعد أن صلّت الفريضة مع رسول اللّه ﷺ .

وقيل : إنه لما اشتد المرض بأبى طالب دعا أهله وقال لهم : إنكم لن تزالوا بخير ما سمعتم قول محمد واتبعتم أمره ، فاتّبعوه وصدّقوه تُرشدوا .

*

فلما توفيا - واشتد البلاء من قريش على رسول اللّه ﷺ - خرج إلى ثقيف ، رجاء أن يؤوه وينصروه على قومه ، ويمنعوه منهم ، حتى يُبَلِّغ رسالة ربه .. وكان ذلك لثلاث بقين من شوّال السنة العاشرة من المبعث ، ومعه مولاه زيد بن حارثة . فلما انتهى صلى اللّه عليه وسلم إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب أبناء عمرو بن عمير . وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح ، فجلس إليهم رسول اللّه ﷺ ، فدعاهم إلى اللّه ، وكلمهم بما جاءهم له من نُصرته على الإسلام ، والقيام معه على مَن خالفه من قومه .

---

(١) جبل بمعلاة مكة .

فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك !

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردَ عليك الكلام ، وإن كنتَ تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقال لهم : « إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى » ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه ، فيذئرهم [1] ذلك عليه .. فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط [2] لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف مَن كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب [3] فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف ، وقد لقى رسول الله ﷺ المرأة التى من بنى جمح فقال لها : « ماذا لقينا من أحمائك » ؟ [4] .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال : « اللّهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقِلّة حيلتى ، وهوانى على الناس .

يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى .

إلى مَن تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟

إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ..

أعوذُ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

---

(١) يذئرهم عليه : يثيرهم ويجرئهم .

(٢) الحائط : البستان .

(٣) حبلة من عنب : شجرة العنب .

(٤) الأحماء : أقارب الزوج .

فأرسل الله تعالى إليه جبريل عليه السلام ومعه مَلَك الجبال ، يستأمره أن يُطبق على أهل مكة الأخشبين - وهما جبلاها اللذان هى بينهما - فقال : « بل أستأنى بهم ، لعل الله أن يُخرج مَن أصلابهم مَن يعبده ، لا يُشرك به شيئاً » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟

قال : « لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مغموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب [1] ، فرفعتُ رأسى ، وإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى مَلَك الجبال ، فسلّم علىّ ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا مَلَك الجبال ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بما شئت ، إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين [2] .

قال رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً » [3] .

ثم عاد رسول الله ﷺ ومولاه زيد بن حارثة إلى مكة ، فلما نزلا بنخلة فى مرجعهما ، قام رسول الله ﷺ يصلى من الليل ما شاء الله ، فصرف الله إليه نفراً من الجن ، فاستمعوا قراءته ، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزل عليه :

---

(١) هو ميقات أهل نجد ، ويقال له « قرن المنازل » أيضاً ، وهو على يوم وليلة من مكة ، والقرن : كل جبل صغير منقطع من جبل كبير .

(٢) هما جبلا مكة : أبو قبيس والذى يقابله وكأنه قيقعان ، وسميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما ، والمراد بإطباقهما : أن يلتقيا على مَن بمكة ، ويحتمل أن يريد أنهما يصيران طبقاً واحداً .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وأقام صلى الله عليه وسلم بنخلة أياماً ، فقال زيد بن حارثة رضى الله عنه : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ - يعنى قريشاً - فقال : « يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه » .

ثم انتهى إلى مكة فأرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدى : « أدخل فى جوارك » ؟ فقال : نعم . فدعا المطعم بنيه وقومه فقال : البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرتُ محمداً ، فلا يهجه أحد .

فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، والمطعم بن عدى وولده محدقون به فى السلاح ، حتى دخل بيته ... وكان رسول الله ﷺ يشكرها له ، وكان دخوله من الطائف لثلاث وعشرين ليلة خلت من ذى القعدة .

* * *

(١) الأحقاف : ٢٩ - ٣٢

● ذكر الإسراء والمعراج :

يقول الإمام البوصيرى رحمه الله :

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إلَى حَرَمٍ ... كَمَا سَرَى البَدْرُ فِى دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ (١)

وَبِتَّ تَرْقَى إلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً ... مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ (٢)

وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ بِهَا ... وَالرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ ... فِى مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ العَلَمِ (٣)

حَتَّى إذَا لَمْ تَدَعْ شَأْواً لِمُسْتَبِقٍ ... مِنَ الدُّنُوِّ وَلاَ مَرْقَى لِمُسْتَنِمِ (٤)

خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالإضَافَةِ إذْ ... نُودِيتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ

كَيْمَا تَفُوزَ بِوَصْلٍ أَىِّ مُسْتَتِرٍ ... عَنِ العُيُونِ وَسِرٍّ أَىِّ مُكْتَتَمِ

فَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرِ مُشْتَرَكٍ ... وَجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرِ مُزْدَحَمِ (٥)

وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ ... وَعَزَّ إدْرَاكُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ (٦)

* *

---

(١) سريت : سرت ليلاً . الحرم : المكان الذى لا يحل انتهاكه ، والحرمان المذكوران فى البيت هما الحرم المكى وحرم المسجد الأقصى .

(٢) لم ترم : لم يرمها أحد لعزتها عليه . وقاب قوسين : أى مقدار القوس ، أى مسافة البُعد بين طرفيه .

(٣) الطباق : المتطابقة .

(٤) شأواً : غاية ، المستبق : السابق المبارى . مرقى : مصدر ميمى بمعنى الرقى ، أو مكاناً للرقى . مستنم : مستعل .

(٥) غير مزدحم : لا يزاحمك فيه أحد .

(٦) أوليت : أعطيت ومُنحت .

ويقول أمير الشعراء شوقى :

أســـرَى بـــكَ اللّهُ لَيْـلاً إذْ مَلائكُهُ ... وَالرُّسْلُ فِى المَسْجِدِ الأقصَى عَلَى قَدَمِ [1]

لَمَّا خَطَـــرْتَ بِـــهِ التَفُّوا بِسيِّدِهِـــمْ ... كَالشُّهْبِ بِالبَدْرِ ، أوْ كَالجُنْدِ بِالعَلَمِ [2]

صَلَّـــى وَرَاءَكَ مِنْهُـــمْ كُلُّ ذِى خَطَرٍ ... وَمَـــنْ يَفُـــزْ بِحَبِيبِ اللّهِ يَأتَمِـــمِ [3]

جُبْتَ السَّمَـــوَاتِ أو مَا فَوْقَهُـــنَّ بِهِم ... عَلَـــى مُنَـــوَّرَةٍ دُرِّيَّـــةِ اللُّجُـمِ [4]

رَكُـــوبَةٌ لَكَ مِـــنْ عِـــزٍّ وَمِنْ شَرَفٍ ... لاَ فِى الجِيَادِ ، وَلاَ فِى الأيْنُقِ الرُّسُمِ [5]

مَشِيئَـــةُ الخَـــالِقِ البَـــارِى ، وَصَنْعَتُهُ ... وَقُـــدْرَةُ اللّهِ فَـــوْقَ الشَّكِ وَالتُّهَـــمِ

حَتَّـــى بَلَغْتَ سَمَـــاءً لاَ يُطَـــارُ لَهَا ... عَلَى جَنَاحٍ ، وَلاَ يُسْعَى عَلَى قَدَمِ [6]

وَقِيـــلَ : كُـلُّ نَبِـــىٍّ عِنْـــدَ رُتْبَتِهِ ... وَيَا مُحَمَّـــدُ هَـــذَا العَرْشُ فَاسْتَلِمِ [7]

* * *

(١) المسجد الأقصى : بيت المقدس . على قدم : قائمون محتشدون .

(٢) خطر : مشى . بسيدهم : تعظيماً لشأنه وإظهار سيادته عليهم . الشهب : جمع شهاب وهو فى الأصل شعلة النار الساطعة والمراد بها النجوم . العلم : راية الحرب .

(٣) ذى خطر : ذى قدرة ومنزلة .

(٤) بهم : أى بملابسة بعضهم فيها . منوّرة درية اللجم : البراق .

(٥) الأينق الرسم : النوق الشديدة الوطئ لقوتها . الرسم : واحدهم رسوم . الجياد : جمع جواد وهو الفرس الرائع البيّن الجودة .

(٦) كان إسراؤه صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى على البراق ، أما عروجه إلى السماء فلم يكن عليه ، والوارد فى الحديث أنه كان على المعراج .

(٧) وقيل - أى بلسان الحال - كل نبى : من الذين فى السموات . عند رتبته : منزلته فى السماء التى هو فيها . ويا محمد - بلسان الحال أيضاً . هذا العرش فاستلم : كناية عن مزيد القرب من رب العزة ، لأن مَن بلغ عرش الملك فقد دنا منه دنواً عظيماً .

ثم أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وقد اختلفوا فى المكان الذى أسرى به منه ، فقيل : المسجد ، وقيل : كان فى بيته ، وقيل : كان فى بيت أم هانئ . ومَن قال هذين قال : المدينة كلها مسجد .

واختلفوا فى الوقت الذى أسرى به فيه .

فروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أنه أسرى به ليلة سبع من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة .

وقال ابن عباس وأنس : أسرى به قبل الهجرة بسنة .

وقال السدى : قبل الهجرة بستة أشهر .

وقال الواقدى : أسرى به لسبع عشرة من رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً . وقيل : أسرى به فى رجب . والله تعالى أعلم .

وقد كان الإسراء برسول الله ﷺ تسرية من الله تعالى لرسوله بعد ما لقى من قومه فى مكة والطائف ، وتثبيتاً له على الحق ، وإعلاماً من الله تعالى أنه إذا رفعه إلى السموات العلى ، فإنه سبحانه سوف يُعْلى كلمته وينصره على أعدائه ويظهر دينه ، لتعم نوره الآفاق ، وتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . فحين ذكر رسول الله ﷺ المستضعفين ، وأن ربه هو ربهم ، رفعه الله تعالى إلى أعلى عليين ، حيث لا يُسعَى على قدم ولا يُطار على جناح .

وكان الإسراء بعد أن فشا الإسلام بمكة فى قريش ، وفى القبائل كلها .

كما كان فى الإسراء عبرة لأولى الألباب ، وهدىً ورحمة وثبات لمن آمن وصدّق ، وكان من أمر الله تعالى على يقين ، فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد .

يقول الرسول ﷺ : « بينا أنا نائم فى الحِجْر ، إذ جاءنى جبريل ، فهمزنى بقدمه فجلستُ فلم أر شيئاً ، فعدتُ إلى مضجعى ، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلستُ فلم أر شيئاً ، فعدتُ إلى مضجعى ، فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلستُ ، فأخذ بعضدى ، فقمتُ معه ، فخرج إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض ، بين البغل والحمار ، فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه ، يضع يده فى منتهى طرفه ، فحملنى عليه ، ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته » .

ويقول قتادة : حُدِّثتُ أن رسول الله ﷺ قال : « لما دنوتُ منه لأركبه ، شمس فوضع جبريل يده على معرفته ، ثم قال : ألا تستحى يا براق مما تصنع ؟ فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه . قال : فاستحيا حتى ارفضّ عرقاً ، ثم قرّ حتى ركبته » .

ثم مضى رسول الله ﷺ ، ومضى جبريل عليه السلام معه ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمّهم رسول الله ﷺ فصلى بهم ، ثم أُتِىَ بإناءين ، فى أحدهما خمر ، وفى الآخر لبن .. فأخذ رسول الله إناء اللبن ، فشرب منه ، وترك إناء الخمر . فقال له جبريل : هُدِيتَ للفطرة : وهُدِيتْ أمتك يا محمد ، وحرمت عليكم الخمر » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « لما فرغتُ مما كان فى بيت المقدس ، أُتِىَ بالمعراج ، ولم أر شيئاً قط أحسن منه ، وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا حُضِر ، فأصعدنى صاحبى فيه ، حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء يقال له « باب الحفظة » ، عليه مَلَك من الملائكة يقال له « إسماعيل » ، تحت يديه اثنا عشر ألف مَلَك ، تحت يدى كل مَلَك منهم اثنا عشر ألف مَلَك - قال : يقول رسول الله ﷺ حين حدّث بهذا الحديث : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [1] - فلما دخل بى قال : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : محمد . قال : أوَ قد بُعِث ؟ قال : نعم . فدعا لى بخير وقاله » .

---

(١) المدثر : ٣١

وقال : « تلقتنى الملائكة حين دخلتُ السماء الدنيا ، فلم يلقنى مَلَك إلا ضاحكاً مستبشراً ، يقول خيراً ويدعو به ، حتى لقينى مَلَك من الملائكة ، فقال مثل ما قالوا ، ودعا بمثل ما دعوا به ، إلا أنه لم يضحك ولم أر منه من البِشْر مثل ما رأيت من غيره ، فقلت لجبريل : يا جبريل ، مَن هذا المَلَك الذى قال لى كما قالت الملائكة ولم يضحك ، ولم أر منه من البِشْر مثل الذى رأيتُ منهم ؟ قال : فقال لى جبريل : أما إنه لو ضحك إلى أحد كان قبلك ، أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك ، لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا مالك خازن النار .

فقال رسول الله ﷺ : فقلت لجبريل ، وهو من الله تعالى بالمكان الذى وصف لكم : ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (١) : ألا تأمره أن يرينى النار ؟ قال : بلى ، يا مالك أر محمداً النار . قال : فكشف عنها غطاءها ، ففارت وارتفعت ، حتى ظننتُ لتأخذن ما أرى .

قال : فقلت لجبريل : يا جبريل ، مره فليردها إلى مكانها . قال : فأمره ، فقال لها : اخبى . فرجعت إلى مكانها الذى خرجت منه ، فما شبهت رجوعها إلا وقوع الظل ، حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها » .

قال أبو سعيد الخدرى فى حديثه : « إن رسول الله ﷺ قال : « لما دخلتُ السماء الدنيا ، رأيتُ بها رجلاً جالساً تُعرض عليه أرواح بنى آدم ، فيقول لبعضها إذا عُرِضت عليه خيراً ويُسَرُّ به ، ويقول : روح طيبة خرجت من جسد طيب ، ويقول لبعضها إذا عُرِضت عليه : أُف ، ويعبس بوجهه ويقول : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

قال : قلت : مَن هذا يا جبريل؟ قال : هذا أبوك آدم ، تُعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرَّ بها وقال : روح طيبة خرجت من جسد طيب . وإذا مرت به روح الكافر منهم أَفَّف منها وكرهها ، وساءه ذلك وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

---

(١) التكوير : ٢١

قال : ثم أصعدنى إلى السماء الثانية ، فإذا فيها ابنا الخالة : عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا .

قال : ثم أصعدنى إلى السماء الثالثة ، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ، قال : قلت : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب .

قال : ثم أصعدنى إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها رجل فسألته : مَن هو ؟ قال : هذا إدريس - قال : يقول رسول الله ﷺ : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ (١) .

قال : ثم أصعدنى إلى السماء الخامسة ، فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية ، عظيم العثنون (٢) ، لم أر كهلاً أجمل منه ، قال : قلت : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا المحبب فى قومه هارون بن عمران .

قال : ثم أصعدنى إلى السماء السادسة ، فإذا فيها رجل آدم طويل أقنى ، كأنه من رجال شنوءة ، فقلت له : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى ابن عمران .

قال : ثم أصعدنى إلى السماء السابعة ، فإذا فيها كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك ، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة . لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ، ولا صاحبكم أشبه به منه ، قال : قلت : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

قال : ثم دخل بى الجنة ، فرأيتُ فيها جارية لعساء (٣) ، فسألتها : لمن أنت ؟ وقد أعجبتنى حين رأيتها ، فقالت : لزيد بن حارثة ، فبشِّر بها رسول الله ﷺ زيد بن حارثة » .

---

(١) مريم : ٥٧ (٢) العثنون : اللحية .

(٣) اللعساء : اللعس فى الشفاة : حمرة تضرب إلى سواد .

ويقول ابن مسعود رضى الله عنه : إن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن فى دخولها : مَن هذا يا جبريل ؟ فيقول : محمد ، فيقولون : أوَ قد بُعِث ؟ فيقول : نعم ، فيقولون : حياه الله من أخ وصاحب ! حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به إلى ربه ففرض عليه خمسين صلاة فى كل يوم .

قال رسول الله ﷺ : « فأقبلتُ راجعاً ، فلما مررتُ بموسى بن عمران - ونِعْمَ الصاحب كان لكم - سألنى : كم فُرِض عليك من الصلاة ؟ فقلت : خمسين صلاة كل يوم ، فقال : إن الصلاة ثقيلة ، وإن أمتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك ، فرجعتُ فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى ، فوضع عنى عشراً . ثم انصرفتُ فمررتُ على موسى فقال لى مثل ذلك ، فرجعتُ فسألت ربى ، فوضع عنى عشراً ، ثم انصرفتُ فمررتُ على موسى ، فقال لى مثل ذلك ، فرجعتُ فسألته فوضع عنى عشراً .

ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك كلما رجعتُ إليه ، قال : فارجع فاسأل ، حتى انتهيتُ إلى أن وضع ذلك عنى ، إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، ثم رجعتُ إلى موسى ، فقال لى مثل ذلك ، فقلت : قد راجعتُ ربى وسألته ، حتى استحييتُ منه ، فما أنا بفاعل . فمن أداهن منكم إيماناً بهن واحتساباً لهن ، كان له أجر خمسين صلاة » .

*

● وعن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - حين رآهم فى تلك الليلة فقال : « أما إبراهيم ، فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ، ولا صاحبكم أشبه به منه - يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم - ، وأما موسى فرجل آدم طُوال ضرب [1] جعد [2] أقنى [3] كأنه

---

(١) الضرب من الرجال : الخفيف اللحم .
(٢) الجعد : المتكسر الشعر .
(٣) الأقنى : المرتفع قصبة الأنف .

من رجال شنوءة [١] ، وأما عيسى ابن مريم ، فرجل أحمر ، بين القصير والطويل ، سبط الشعر ، كثير خيلان الوجه [٢] ، كأنه خرج من ديماس [٣] ، تخال رأسه يقطر ماءً وليس به ماء ، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفى » .

*

● ويقول أبو سعيد الخدرى فى حديثه عن النار وأهلها : إن رسول الله ﷺ قال : « ثم رأيت رجالاً لهم مشافر [٤] كمشافر الإبل ، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار [٥] ، يقذفونها فى أفواههم ، فتخرج من أدبارهم . فقلت : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً » .

قال : « ثم رأيتُ رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون ، يمرون عليهم كالإبل المهيومة [٦] حين يُعرضون على النار ، يطئونهم لا يقدرون على أن يتحوّلوا من مكانهم ذلك ، قال : قلت : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا » .

قال : « ثم رأيتُ رجالاً بين أيديهم لحم ثمين طيب ، إلى جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث المنتن ، ويتركون الثمين الطيب . قال : قلت : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرّم الله عليهم منهن » .

قال : « ثم رأيتُ نساءً معلقات بثديهن ، فقلت : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال مَن ليس من أولادهم » [٧] .

*

---

(١) شنوءة : قبيلة من الأزد .
(٢) الخيلان : الشامة السوداء .
(٣) الديماس : الحمام .
(٤) المشفر : شفة الجمل .
(٥) الفهر : الحجر ملء الكف .
(٦) المهيومة : العطاش .
(٧) الوجس : الصوت الخفى .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : « ليلة أسرى بنبى الله صلى الله عليه وسلم ودخل الجنة ، فسمع من جانبها وجساً [1] ، قال : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : هذا بلال المؤذن ، فقال نبى الله ﷺ حين جاء إلى الناس : قد أفلح بلال ، رأيتُ كذا وكذا .

قال : فلقيه موسى صلى الله عليه وسلم ، فرحب به وقال : مرحباً بالنبى الأُمِّى ، قال : فقال : وهو رجل آدم طويل سبط شعره ، مع أذنيه أو فوقهما ، فقال : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى عليه السلام .

قال : فمضى ، فلقيه عيسى ، فرحب به وقال : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عيسى .

قال : فمضى ، فلقيه شيخ جليل مهيب ، فرحب به وسلم عليه ، وكلهم يسلم عليه ، قال : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

قال : فنظر فى النار فإذا قوم يأكلون الجيف ، فقال : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس . ورأى رجلاً أحمر أزرق جعداً شعثاً ، إذا رأيته ، قال : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة ..

قال : فلما دخل النبى ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى ، فالتفت ثم التفت ، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه ، فلما انصرف جئ بقدحين ، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال ، فى أحدهما لبن ، وفى الآخر عسل ، فأخذ اللبن فشرب منه ، فقال الذى كان معه القدح : أصبتَ الفِطرة » [2] .

وفى حديث الحسن الذى رواه ابن هشام [3] قال : « ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر . فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البين ، والله إن العير تطرد شهراً من مكة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ١/٢٤٨ - ٢٥٧ (بتصرف) .

(٢) رواه أحمد (٢٣٢٤) . (٣) السيرة ، المرجع السابق : ١/ ٢٥٠

إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة ! . قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة !!

قال : فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يُحدِّث به الناس .

فقال أبو بكر : واللّه لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ! فواللّه إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول اللّه ﷺ ، فقال : يا نبى اللّه ، أحدَّثتَ هؤلاء القوم أنك جئتَ بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال : يا نبى اللّه ، فصفه لى فإنى قد جئته - قال الحسن : فقال رسول اللّه ﷺ : فرُفِعَ لى حتى نظرتُ إليه - فجعل رسول اللّه ﷺ يصفه لأبى بكر . ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول اللّه ، كلما وصف له منه شيئاً قال : صدقت ، أشهد أنك رسول اللّه .. حتى انتهى .

قال رسول اللّه ﷺ لأبى بكر : وأنت يا أبا بكر الصدِّيق ، فيومئذ سماه الصدِّيق .

قال الحسن : وأنزل اللّه فيمن ارتدّ عن إسلامه لذلك : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾ (١) .

*

(١) الإسراء : ٦٠.

وعن أم هانئ بنت أبى طالب رضى الله عنها - واسمها هند - فى مسرى رسول الله ﷺ ، أنها كانت تقول : ما أُسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى ، نام عندى تلك الليلة فى بيتى ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام فنمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : « يا أم هانئ ، لقد صليتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئتُ بيت المقدس فصليتُ فيه ، ثم قد صليتُ صلاة الغداة معكم الآن كما ترين » .

ثم قام ليخرج ، فأخذتُ بطرف ردائه ، فتكشف عن بطنه كأنه قبطية [1] مطوية ، فقلت له : يا نبى الله ، لا تحدِّث بهذا الناس فيكذِّبوك ويؤذوك ، قال : « واللهِ لأحدثنموه » .

قالت : فقلت لجارية لى حبشية : ويحك ، اتبعى رسول الله ﷺ حتى تسمعى ما يقول للناس ، وما يقولون له . فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم ، فعجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد ؟ فإنّا لم نسمع بمثل هذا قط !

قال : « آية ذلك أنى مررتُ بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حس الدابة . فندَّ لهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا موجه إلى الشام . ثم أقبلتُ حتى إذا كنت بضجنان [2] مررتُ بعير بنى فلان فوجدتُ القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشئ ، فكشفتُ غطاءه وشربتُ ما فيه ، ثم غطيتُ عليه كما كان . وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب [3] من البيضاء [4] ، ثنية التنعيم ، يقدمها جمل أورق [5] ، عليه غرارتان ، إحداهما سوداء ، والأخرى برقاء [6] .

---

(١) القبطية : ثياب من كتان تنسج بمصر ، منسوبة إلى القبط .

(٢) ضجنان : جبل بناحية تهامة .

(٣) يصوب : ينزل من مكان عال .

(٤) البيضاء : عقبة قرب مكة فى أسفلها .

(٥) الأورق : الذى لونه بين الغبرة والسواد .

(٦) البرقاء : التى فيها ألوان مختلفة .

قالت : فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماءً ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطىً كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماءً . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق واللّه ، لقد أنفرنا فى الوادى الذى ذكر ، وندَّ لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه » [1] .

* *

ويحدثنا ابن عباس رضى اللّه عنهما عما كان من أمر أهل مكة مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيقول : قال رسول اللّه ﷺ : « لما كان ليلة أُسرِىَ بى وأصبحتُ بمكة ، فظعتُ بأمرى [2] ، وعرفتُ أن الناس مكذبى ، فقعدت معتزلاً حزيناً ، قال : فمرّ عدو اللّه أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه فقال كالمستهزئ : هل كان من شئ ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : نعم . قال : ما هو ؟ قال : « إنه أُسرى بى الليلة » ؟ ، قال : إلى أين ؟ قال : « إلى بيت المقدس » . قال : ثم أصبحتَ بين ظهرانينا ؟ [3] .. قال : « نعم » .

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه ؛ قال : أرأيتَ إن دعوتُ قومك تحدثهم ما حدّثتنى ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : نعم ، فقال: هيا معشر بنى كعب بن لؤى ، قال : فانتفضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما .

قال : حدِّث قومك بما حدّثتنى ، فقال رسول اللّه ﷺ : « إنى أُسرى بى الليلة » ، قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى بيت المقدس » ، قالوا : ثم أصبحتَ بين ظهرانينا ؟ قال : نعم .

قال : فمَن بين مصفق ، ومَن بين واضع يده على رأسه ، متعجباً للكذب - زعم !

---

(١) السيرة النبوية ، مرجع سابق : ٢٥٣/١

(٢) أى اشتد علىّ وهبته .

(٣) بين ظهرانينا : أى بين القوم مطلقاً .

قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ، وفى القوم مَن قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ، فقال رسول الله ﷺ : فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس علىّ بعض النعت ، قال : فجئ بالمسجد وأنا أنظر ، حتى وُضِعَ دون دار عقال - أو عقيل - فنعته وأنا أنظر إليه . قال : وكان مع هذا نعت لم أحفظه . قال : فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب » (١) .

* *

يقول الله تعالى فى واقعة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِه لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٢) .

ويقول عن المعراج : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِه مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّه الكُبْرَىٰ ﴾ (٣) .

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير آية الإسراء : « يمجد الله تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ، ولا ربَّ سواه . ﴿ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِه ﴾ : يعنى محمداً ﷺ ﴿ لَيْلاً ﴾ : أى فى جنح الليل ﴿ مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ وهو بيت المقدس الذى بـ « إلياء » ، فقدَّمه على الأنبياء من لدن إبراهيم

(١) رواه أحمد (٢٨٢ .) . (٢) الإسراء : ١ (٣) النجم : ١ - ١٨

عليه السلام ، ولهذا جُمعوا له هناك كلهم ، فأمَّهم فى محلتهم ودارهم ، فدلّ على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدّم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ : أى فى الزروع والثمار ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ : أى محمداً ﷺ ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ : أى العظام - كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (١) - ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ : أى السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلاً منهم ما يستحقه فى الدنيا والآخرة .

هذا وحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة » (٢) .

كما يقول فى آيات المعراج :

« قال الشعبى وغيره : « الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق (رواه ابن أبى حاتم) .

واختلف المفسرون فى معنى قوله : ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ فقيل : هو الثريا إذا سقطت مع الفجر ، أو هى الزهرة ﴿ إِذَا هَوَىٰ ﴾ : إذا رمى به الشيطان ، أو هو القرآن إذا نزل - وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٣) - ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ هذا هو المقسَم عليه ، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال - وهو الجاهل الذى يسلك غير طريق الحق بغير علم ، والغاوى هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره ، فنزّه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطائفة اليهود ، وهى علم الشئ وكتمانه والعمل بخلافه ، بل هو صلاة الله وسلامه عليه ، وما بعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال

---

(١) النجم : ١٨

(٢) مختصر تفسير ابن كثير - للشيخ محمد كريم راجع : ٦٨٧/١

(٣) الواقعة : ٧٥ - ٧٦

والسداد ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ : أى ما يقول قولاً عن هوى وغرض ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ : أى إنما يقول ما أُمِرَ أن يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ : وهو جبريل عليه السلام ، ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ : أى ذو قوة ، أو ذو منظر حسن ﴿ فَاسْتَوَىٰ ﴾ : يعنى جبريل عليه السلام ، ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ : يعنى جبريل استوى فى الأفق الأعلى ، والأفق الأعلى الذى يأتى منه الصبح ، أو هو مطلع الشمس ، ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ : أى فاقترب جبريل إلى محمد - عليهما السلام - لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين - أى بقدرهما إذا مُدّا ، أو أدنى - وهذه الصيغة تستعمل فى اللغة لإثبات المخبر عنه ونفى ما زاد عليه كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (١) ، وكذا قوله : ﴿ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (٣) .

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ فى الحديث : « رأيتُ جبريل له ستمائة جناح » . ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ : أى رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف ، قد ملأ ما بين السماء والأرض ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ عن ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

روى الإمام أحمد أنه أُسرى برسول الله ﷺ فانتهى به إلى سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يُعرج به من الأرض فيُقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيُقبض منها ، ويغشاها فراش من ذهب ، وأُعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : أُعطى الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغُفِرَ لمن لا يُشرك بالله شيئاً من أمته .

---

(١) البقرة : ٧٤ (٢) النساء : ٧٧ (٣) الصافات : ١٤٧

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ ما ذهب يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ما جاوز ما أُمِرَ به ، وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة ، أنه ما فعل إلا ما أُمِرَ به ، ولا سأل فوق ما أعطى ، ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ - كقوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ (١) - أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين استدل مَن ذهب من أهل السُنَّة على أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك (٢) .

ويقول فضيلة الشيخ محمد على الصابونى فى « مختصر تفسير الطبرى » تعليقاً على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ (٣) :

« اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً فى الذى رآه محمد ﷺ ، هل هو جبريل ؟ أو هو رب العزة جَلَّ وعلا ؟

فذهب ابن عباس وعكرمة إلى أن الرسول رأى ربه ليلة المعراج بعينى رأسه ، وكان ابن عباس يقول : « إن اللّه اصطفى إبراهيم بالخُلّة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمداً بالرؤية » .

وأنكرت ذلك عائشة وقالت : مَن زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على اللّه ، لأن اللّه تعالى يقول : ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (٤) ، وكانت تقول : « إنما رأى جبريل عليه السلام فى صورته مرتين ، مرة فى الأرض حين هبط من السماء ، وقد سدّ عظم خلقه ما بين السماء والأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى ، له ستمائة جناح » .

ثم يقول فضيلته : « الآيات الكريمة فى سياقها ودلالتها لا تشير إلى رؤية الرسول ﷺ لربه ، لأن الحديث فيها إنما جاء عن جبريل بدليل قوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، فالضمائر كلها تدل

---

(١) الإسراء : ١
(٢) المرجع السابق : ٥٥٧/٢
(٣) النجم : ١٣
(٤) الأنعام : ١٠٣

على أن المراد به جبريل ، وقد ختم هذه الآيات بقوله : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ ، فهذه هى دلالة الآيات وهذه فحواها ، ونحن مع أهل السُّنَّة والجماعة نقول : إن الرسول ﷺ قد رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج - كما هو مذهب الإمام أحمد - والأدلة تؤخذ من السُّنَّة المطهرة ومن أقوال السَلَف لا من الآيات الكريمة ، فليس فى السورة ما يشير إلى رؤية الرسول ﷺ لربه .. والله أعلم » أ هـ [1] .

ونحن لا نرى رأى ابن عباس وعكرمة - أو غيرهما - إنما نتفق مع رأى عائشة رضى الله عنها ، ونتمسك بنصوص الآيات الكريمة ، ونذهب مذهب ابن كثير رحمه الله فى أنه - صلى الله عليه وسلم - لم ير ربه ، وإنما كانت الرؤية لجبريل عليه السلام .

* * *

ومما وقع فى قصة الرسول ﷺ لما قرأ سورة النجم بحضرة المشركين ، فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ [2] ، ألقى الشيطان فى تلاوته : « تلك الغرانيق العلى . وإن شفاعتهن لترتجى » . فظن المشركون أن النبى ﷺ قاله ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وتلقاها الصغير والكبير منهم ، وقالوا كلاماً معناه : هذا الذى نريد ، نحن نقر أن الله هو الخالق الرازق المدبر للأمور ، ولكن نريد شفاعتها عنده ، فإذا أقرّ بذلك فليس بيننا وبينه أى خلاف .

واستمر رسول الله ﷺ يقرؤها ، فلما بلغ السجدة سجد وسجدوا معه . وشاع الخبر : أنهم صافوه ، حتى إن الخبر وصل إلى الصحابة الذين بالحبشة ، فركبوا البحر راجعين ، لظنهم أن ذلك صدق . فلما ذُكر ذلك لرسول الله ﷺ : خاف أن يكون قاله . فخاف من الله خوفاً عظيماً ، حتى أنزل الله عليه :

---

(١) مختصر تفسير الطبرى ، للشيخ محمد على الصابونى هامش : ١/ ٤٠٠

(٢) النجم : ١٩ - ٢٠

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فى أُمْنِيَّتِه فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِه ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفى شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (١) .

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب : « فمَن عرف هذه القصة ، وعرف ما عليه المشركون اليوم ، وما قاله ويقوله علماؤهم ، ولم يميز بين الإسلام الذى أتى به النبى ﷺ ، وبين دين قريش الذى أرسل الله رسوله ينذرهم عنه ، وهو الشرك الأكبر : فأبعده الله ، فإن هذه القصة فى غاية الوضوح ، إلا مَن طبع الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فذلك لا حيلة فيه ، ولو كان من أفهم الناس ، كما قال الله تعالى فى أهل الفهم الذين لم يوفقوا : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢) .

* * *

● الهجرة المباركة :

استمر المشركون فى إيذائهم للمسلمين ، واستمر الرسول ﷺ يدعو إلى ربه ليلاً ونهاراً ، فكان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه فى المواسم ، إذا كانت ،

---

(١) الحج : ٥٢ - ٥٥

(٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ - للإمام محمد بن عبد الوهاب - مرجع سابق - ص ٢٢ ، والآية من سورة الأحقاف : ٢٦

على قبائل العرب يدعوهم إلى اللّه عَزَّ وجَلَّ ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين اللّه ما بعثه به .

كان صلى اللّه عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى اللّه وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه ، وما جاء به من اللّه من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف ، إلا تصدى له ، فدعاه إلى اللّه ، وعرض عليه ما عنده .

فلما أراد اللّه عَزَّ وجَلَّ إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ﷺ ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول اللّه ﷺ فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد اللّه بهم خيراً فقال لهم : « مَن أنتم » ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : « أمن موالى يهود » ؟ قالوا : نعم . قال : « أفلا تجلسون أكلمكم » ؟ قالوا : بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى اللّه عَزَّ وجَلَّ ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع اللّه بهم فى الإسلام ، أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلّم رسول اللّه ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى اللّه ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا واللّه إنه للنبى الذى توعّدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم اللّه بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم اللّه عليه فلا رجل أعزّ منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا [1] وكانوا ستة نفر .

عاد الأنصار - وكلهم من الخزرج - إلى المدينة ، وكان منهم أسعد بن زرارة وجابر بن عبد الله بن رئاب السلمى ، ودعوا قومهم إلى الإسلام ، فنشأ الإسلام فى المدينة ، حتى لم تبق دار إلا دخلها .

فلما كان العام المقبل : جاء منهم اثنى عشر رجلاً - الستة الأُوَل ، خلا جابراً - ومعهم عبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وغيرهم : الجمع اثنى عشر رجلاً ؛ كانوا جميعاً من الخزرج إلا اثنان من الأوس هما : أبو الهيثم وعويم بن ساعدة .

فلما انصرفوا بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام . فنزل على أبى أُمامة - أسعد بن زرارة - فخرج بمصعب - فى إحدى خريجاته - فدخل حائطاً من حيطان بنى ظفر فجلسا فيه ، واجتمع إليهما رجال من أسلم .

فقال سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأسيد بن حضير : اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما . فإن أسعد بن زرارة ابن خالتى ، ولولا ذلك لكفيتك ذلك .

وكان سعد وأسيد سيدى قومهما ، فأخذ أسيد حربته ، ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك . فاصدق الله فيه .

قال مصعب : إن يكلمنى أكلمه .

فوقف عليهما فقال : ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا ، إن كان لكما فى أنفسكما حاجة .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، مرجع سابق : ١/ ٢٧.

فقال مصعب : أوَ تجلس فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره . فقال : أنصفتَ . ثم ركز حربته وجلس .

فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . قال : فواللّه لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، فى إشراقه وتهلله .

ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟

قالا له : تغتسل وتطهر ثوبك . ثم تشهد شهادة الحق . ثم تصلى ركعتين .

فقام فاغتسل ، وطهر ثوبه . وتشهّد وصلى ركعتين . ثم قال : إن ورائى رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرشده إليكما الآن - سعد بن عبادة - ثم أخذ حربته ، وانصرف إلى سعد فى قومه ، وهم جلوس فى ناديهم .

فقال سعد : أحلف باللّه ، لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال : كلمتُ الرجلين ، فواللّه ما رأيتُ بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . وقد حُدِّثت: إن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه - وذلك أنه ابن خالتك - ليخفروك .

فقام سعد مغضباً ، للذى ذُكر له ، فأخذ حربته ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشمماً ، ثم قال لأسعد بن زرارة : واللّه يا أبا أمامة ، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى ، تغشانا فى دارنا بما نكره ؟

وقد كان أسعد قال لمصعب : جاءك واللّه سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد .

فقال له مصعب : أوَ تقعد فتسمع ؟ فإن رضيتَ أمراً قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفتَ . ثم ركز حربته فجلس .

فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن . قال : فعرفنا واللّه فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، فى إشراقه وتهلله .

ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟ قالا : تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين .

ففعل ذلك ثم أخذ حربته ، فأقبل إلى نادى قومه . فلما رأوه قالوا : نحلف باللّه لقد رجع بغير الوجه الذى ذهب به ، فقال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة .

قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا باللّه ورسوله . فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا أسلموا ، إلا الأصيرم ، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد . فأسلم وقاتل وقُتل ، ولم يسجد للّه سجدة . فقال النبى ﷺ : « عمل قليلاً وأُجِرَ كثيراً » .

فأقام مصعب فى منزل أسعد يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد ، وخطمة ، ووائل ، وواقف .

فلما كان من العام المقبل ، وجاء موسم الحج ، قال مَن أسلم من الأنصار : حتى متى نترك رسول اللّه ﷺ ، يُطْرَد فى جبال مكة ويُخاف ؟! فخرجوا مع مشركى قومهم حجاجاً .

فلما وصلوا واعدوه العقبة ، من أواسط أيام التشريق للبيعة [1] .

عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى قال : « لبث رسول اللّه ﷺ عشر سنين يتبع الحاج فى منازلهم فى الموسم : مجنة وعكاظ ، ومنازلهم بمنى : « مَن يؤوينى وينصرنى حتى أُبلِّغ رسالات ربى ، وله الجنة » ؟ فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره ،

---

(١) مختصر سيرة الرسول ، للإمام محمد بن عبد الوهاب ، مرجع سابق ص ٨٥ وما بعدها (بتصرف) .

حتى إن الرجل يرحل صاحبه من مضر أو اليمن ، فيأتيه قومه أو ذو رحمه فيقولون : احذر فتى قريش لا يفتنك ، يمشى بين رحالهم يدعوهم إلى الله - عَزَّ وجَلَّ - يشيرون إليه بأصابعهم ، حتى بعثنا الله له من يثرب ، فيأتيه الرجل منا ، فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام .

ثم بعثنا الله عَزَّ وجَلَّ ، وائتمرنا ، واجتمعنا سبعين رجلاً منا ، فقلنا : حتى متى نَذَر رسول الله ﷺ يُطَوَّف فى جبال مكة ويُخاف ؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم ، فواعدنا شِعْب العقبة ، فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين حتى توافينا عنده ، فقلنا : يا رسولَ الله ، علام نبايعك ؟ قال : « تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى اليُسر والعُسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى - إذا قدمتُ عليكم يثرب - تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » .

فقمنا نبايعه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا ، فقال : رويداً يا أهل يثرب ، إنَّا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، إن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم ، وعلى قتل خياركم ، وعلى مفارقة العرب كافة ، فخذوه وآجركم الله عليه .. وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة ، فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله عَزَّ وجَلَّ .

فقلنا : أمط يدك يا أسعد بين زرارة ، فوالله لا نذر هذه البيعة ، ولا نستقيلها .

فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً ، يأخذ علينا شرطه ، ويعطينا على ذلك الجنة »[1] .

---

(١) رواه البيهقى .

وكان جميع أهل العقبة : سبعين رجلاً وامرأتين هما نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدى .

فلما بايعوه صرخ الشيطان بأنفذ صوت سُمِع قط : يا أهل الأخاشب ، هل لكم فى محمد والصبأة معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم . فقال رسول الله ﷺ : « هذا أزب العقبة ، أما والله يا عدو الله لأفرغن لك » ، ثم قال لأصحابه : « ارفضوا إلى رحالكم » .

فقال العباس بن عبادة رضى الله عنه : والذى بعثك بالحق إن شئتَ لنميلن على أهل مكة غداً بأسيافنا ، فقال : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .. فرجعوا .

فلما أصبحوا غدت عليهم جِلّة قريش فقالوا : إنه بلغنا أنكم جئتم صاحبنا البارحة ، تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث رجال - ممن لم يعلموا ولم يشهدوا العقبة - يحلفون لهم بالله : ما كان من هذا شئ ، والذين يشهدون ينظر بعضهم إلى بعض ، وجعل عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول يقول : هذا باطل ، ما كان هذا ، وما كان قومى ليفتاتوا علىّ بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤامرونى .

فقام القوم - وفيهم الحارث بن هشام - وعليه نعلان جديدان . فقال كعب بن مالك : كلمة - كأنه يريد أن يشرك بها القوم فيما قالوا - فقال : يا أبا جابر ، ما تستطيع أن تتخذ - وأنت سيد من ساداتنا - مثل نعلى هذا الفتى ؟

فسمعها الحارث ، فخلعها من رجليه ، ثم رمى بهما إليه ، وقال : والله لتنتعلهما . فقال أبو جابر : مه ؟ أحفظت الفتى ، فاردد إليه نعليه ؟ قال : لا أردهما إليه والله ، فأل صالح ، لئن صدق الفأل لأسلبنه .

فلما انفصلت الأنصار عن مكة ، صحّ الخبر عند قريش ، فخرجوا فى طلبهم ، فأدركوا سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، فأعجزهم المنذر ومضى .

وأما سعد .. فقالوا له : أنت على دين محمد ؟ قال : نعم . فربطوا يديه إلى عنقه بنسعة رحله ، وجعلوا يسحبونه بشعره ، ويضربونه - وكان ذا جمة - حتى أدخلوه مكة . فجاء المطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية ، فخلصاه من أيديهم .

وتشاورت الأنصار أن يَكِرُّوا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فرحلوا إلى المدينة ، فلما قدموها أظهروا الإسلام بها ، وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك .

وعن كعب بن مالك ، أن العباس بن عبد المطلب كان حاضراً هذه البيعة ، قال : « فاجتمعنا فى الشِعْب ننتظر رسول الله ﷺ ، حتى جاءنا ومعه العباس ابن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : « يا معشر الخزرج - قال : وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار : الخزرج - خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عزٍّ من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه مَن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عزٍّ ومنعة من قومه وبلده » . فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت » [1] - ثم سرد بقية القصة .

*

كانت بيعة العقبة الأولى - على بيعة النساء - وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ فى الحرب ، فبايعهم رسول الله ﷺ : « على أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتون ببهتان

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، المرجع السابق : ٢٧٩/١

يقترونه من بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصونه فى معروف ، فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى اللّه عَزَّ وجَلَّ ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر » .

أما البيعة الثانية فكانت بيعة الحرب ، حين أذن اللّه تعالى لرسوله ﷺ فى القتال ، ولهذا بايعهم عليه السلام على : « السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى اليُسر والعُسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن يقولوا فى اللّه لا تأخذهم لومة لائم ، وعلى أن ينصروه إذا قدم عليهم يثرب ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبنائهم ، ولهم الجنة » .

لذا قال له البراء بن معرور وهوآخذ بيده : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول اللّه ، فنحن واللّهِ أبناء الحروب . وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر .

فلما اعترضه أبو الهيثم بن التيهان بقوله : يا رسول اللّه ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنّا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللّه أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

لما قال أبو الهيثم مقالته ، تبسم رسول اللّه ﷺ ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب مَن حاربتم ، وأسالم مَن سالمتم » .

وكانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمى دمك وهدمى هدمك ، أى ما هدمتَ من الدماء هدمتُه أنا ، يعنون أن ذمتهم هى ذمته ، وحرمتهم هى حرمته .

ثم قال رسول اللّه ﷺ : « أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

ثم أذن اللّه تعالى لرسوله بالحرب ..

فعن محمد بن إسحاق المطلبى قال : كان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تُحلّل له الدماء . إنما يؤمر بالدعاء إلى الله تعالى والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل .

وكانت قريش قد اضطهدت مَن اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم ، فهم بين مفتون فى دينه ، وبين معذَّب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم . منهم مَن بأرض الحبشة ، ومنهم مَن بالمدينة ، وفى كل وجه .

فلما عتت قريش على الله عَزَّ وجَلَّ ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذّبوا نبيه ﷺ ، وعذبوا ونفوا مَن عبده ووحّده وصدّق نبيه واعتصم بدينه ، أذن الله عَزَّ وجَلَّ لرسوله ﷺ فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ..

فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم - عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء - قول الله تبارك وتعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ، وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [1] : أى أنى إنما أحللتُ لهم القتال لأنهم ظُلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس ، إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر - يعنى النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

---

(١) الحج : ٣٩ - ٤١

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [1] : أى حتى لا يُفتَن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [1] : أى حتى يُعبد الله ، لا يُعبد معه غيره .

فلما أذن الله تعالى له - صلى الله عليه وسلم - فى الحرب ، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنُصرة له ولمن اتبعه ، وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومَن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إن الله عَزَّ وجَلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » .

وكان أول مَن خرج : أبو سَلَمة بن عبد الأسد ، وزوجته أم سَلَمة ، ولكنها حُبست عنه سنة ، وحِيْلَ بينها وبين ولدها ، ثم خرجت بعد هى وولدها إلى المدينة .

ثم خرج المسلمون أرسالاً ، يتبع بعضهم بعضاً ، ولم يبق منهم بمكة أحد إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعلىّ - أقاما بأمر رسول الله ﷺ لهما - وإلا مَن احتبسه المشركون كرهاً .

وأعدّ رسول الله ﷺ جهازه ، ينتظر متى يؤمر بالخروج ، وأعدّ أبو بكر جهازه .

فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهّزوا وخرجوا بأهليهم إلى المدينة ، عرفوا أن الدار دار منعة ، وأن القوم أهل حلقة وبأس ، فخافوا خروج رسول الله ﷺ ، فيشتد أمره عليهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة ، وحضرهم إبليس فى صورة شيخ من أهل نجد ، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ .

فأشار كل منهم برأى ، والشيخ يرده ولا يرضاه ، إلى أن قال أبو جهل - عليه لعنة الله : قد فرق لى فيه برأى ، ما أراكم وقعتم عليه . قالوا : ما هو ؟

---

(١) البقرة : ١٩٣

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً جلداً ، ثم نعطيه سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا تدرى بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع ، ولا يمكنها معاداة القبائل كلها ، وتسوق ديته .

فقال الشيخ : لله در هذا الفتى ، هذا والله الرأى . فتفرقوا على ذلك .

فجاء جبريل عليه السلام ، فأخبر النبى ﷺ بذلك ، وأمره أن لا ينام فى مضجعه تلك الليلة .

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبى بكر نصف النهار - فى ساعة لم يكن يأتيه فيها - متقنعاً ، فقال : « أخرج مَن عندك » ، فقال : إنما هم أهلك يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أذن لى فى الخروج » .

فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال : « نعم » .

فقال أبو بكر : فخذ - بأبى أنت وأمى - إحدى راحلتى هاتين . فقال : « بالثمن » .

وأمر علياً كرّم الله وجهه أن يبيت تلك الليلة على فراشه .

واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صير الباب ، ويرصدونه يريدون بياته ، ويأتمرون : أيهم يكون أشقاها ؟

فخرج رسول الله ﷺ عليهم ، فأخذ حفنة من البطحاء فذرّها على رؤوسهم وهو يتلو : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

وأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) يس : ٩ (٢) الأنفال : ٣٠

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبى بكر ، فخرجا من خوخة فى بيت أبى بكر ليلاً ، فجاء رجل ، فرأى القوم ببابه فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً . قال : خبتم وخسرتم ، قد والله مرّ بكم ، وذرّ على رؤوسكم التراب ، قالوا : والله ما أبصرناه ، وقاموا ينفضون التراب من رؤوسهم [1] .

فلما أصبحوا ، قام علىّ كرّم الله وجهه عن الفراش ، فسألوه عن الرسول ﷺ فقال : لا علم لى به .

ومضى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى غار ثور ، فنسجت العنكبوت على بابه .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « ولما كان ليلة بات النبى ﷺ ، أمر الله تعالى شجرة فنبتت فى وجه الغار ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبى ﷺ على قدر أربعين ذراعاً ، معهم قسيهم وعصيهم ، تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار ، فقال لأصحابه : ليس فى الغار شئ ، رأيتُ حمامتين على فم الغار فعرفتُ أن ليس فيه أحد . وقال رجل آخر : الغار . فقال أمية بن خلف : ما أريكم فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى قبل أن يولد محمد » [2] .

وكان رسول الله ﷺ وصاحبه قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثى ، وكان هادياً ماهراً - وكان على دين قومه - وأمناه على ذلك ، وسلّما إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث .

ويروى أن قريشاً عندما جدّت فى طلبهما ، أخذوا معهم القافة ، حتى انتهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا .

---

(١) وهذه هى المعجزة الأولى للرسول فى واقعة الهجرة .

(٢) وهذه معجزة ثانية للرسول ﷺ فى واقعة الهجرة .

فقال صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ لا تحزن إن الله معنا » .

وكانا يسمعان كلامهم ، إلا أن الله تعالى عمّى عليهم أمرهما .

وأنزل الله تعالى فى ذلك قوله : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

ويروى أنه لما انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، دخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله ﷺ ، يتلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية ، حتى يقى رسول الله ﷺ بنفسه .

فأقام رسول الله ﷺ وصاحبه فى الغار ثلاثاً ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مئة ناقة ، لمن يرده عليهم .

وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .

وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر رضى الله عنه ، يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيرهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لهما عصاماً ، فلما ارتحلت ذهبت لتعلق السفرة ،

---

(١) التوبة : ٤٠

فإذا ليس لها عصام ، فحلّت نطاقها وشقته باثنتين ، فعلقت السفرة بواحد ، وانتطقت بالآخر ، ولذا سميت ذات النطاقين .

وتقول عائشة رضى الله عنها : « فجهزناهما أحث الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها ، فأوكت به فم الجراب ، وقطعت الأخرى عصاماً للقربة ، فبذلك لقبت « ذات النطاقين » .

وتقول أسماء رضى الله عنها : « لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه ، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر ، فخرجتُ إليهم ، فقالوا : أين أبوكِ يا بنت أبى بكر ؟ قالت : قلت : لا أدرى والله أين أبى . قالت : فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى .

قالت : ثم انصرفوا ، فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندرى أين وجّهَ رسول الله ﷺ ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة ، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته وما يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقيـــن حـــلا خيمتى أم معبد

همـا نـــزلا بالبـــر ثـــم تروحا ... فأفلح مَـن أمســى رفيق محمد

ليهـن بنـى كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنيـن بمرصد [1]

قالت أسماء رضى الله عنها : « فلما سمعنا قوله ، عرفنا حيث وَجّهَ رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما » .

---

(١) بنو كعب هم قوم أم معبد بنت كعب - امرأة من بنى كعب - من خزاعة ، وستأتى قصتها مع رسول الله ﷺ وصاحبه رضى الله عنه .

وعن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن جدته أسماء بنت أبى بكر قالت : « لما خرج رسول الله ﷺ ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم - أو ستة آلاف - فانطلق بها معه . قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت : قلت : كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم .. لا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردتُ أن أسكن الشيخ بذلك » .

*

مكث رسول الله ﷺ وصاحبه فى الغار - كما ذكرنا - حتى خمدت نار الطلب ، فجاءهما ابن أريقط بالراحلتين فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه .

فلما أيس المشركون منهما ، جعلوا لمن جاء فيهما دية كل واحد منهما ، لمن يأتى بهما أو بأحدهما ، فجدّ الناس فى الطلب ، والله غالب على أمره .

فلما مروا بحى من مدلج مصعدين من قديد ، بصر بهم رجل فوقف على الحى فقال : لقد رأيتُ آنفاً بالساحل أسودة ، ما أراها إلا محمداً وأصحابه .

ففطن بالأمر سراقة بن مالك ، فأراد أن يكون الظفر له ، وقد سبق له من الظفر ما لم يكن بحسابه ، فقال : بل هما فلان وفلان ، خرجا فى طلب حاجة لهما .

ثم مكث قليلاً ، ثم قام فدخل خباءه وقال لجاريته : اخرجى بالفرس من وراء الخباء ، وموعدك وراء الأكمة ، ثم أخذ رمحه وخفض عاليه يخط به الأرض حتى ركب فرسه ، فلما دنا منهم ، وسمع قراءة النبى ﷺ - وأبو بكر يكثر الالتفات ، ورسول الله ﷺ لا يلتفت . قال أبو بكر : يا رسول الله ، هذا سراقة

ابن مالك قد رهقنا ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه فى الأرض . فقال : قد علمتُ أن الذى أصابنى بدعائكما ، فادعوا الله لى ، ولكما أن أرد الناس عنكما ، فدعا له رسول الله ﷺ ، فخلصت يدا فرسه فانطلق .

وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً ، فكتب له أبو بكر بأمره فى أديم ، وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكة ، فجاء به ، فوفى له رسول الله ﷺ .

ولما رجع سراقة ، وجد الناس فى الطلب ، فجعل يقول : قد استبرأتُ لكم الخبر ، وقد كُفيتم ما ههنا ، فكان أول النهار جاهداً عليهما ، وكان آخره حارساً لهما [1] .

ويحدثنا سراقة رضى الله عنه فيقول : « لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مئة ناقة لمن رده عليهم .

قال : فبيّنا أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا ، حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا علىّ آنفاً ، إنى لأراهم محمداً وأصحابه ، قال : فأومأتُ إليه بعينى : أن اسكت . ثم قلت : إنما هم بنو فلان ، يبتغون ضالة لهم ، قال : لعله ، ثم سكت .

قال : ثم مكثت قليلاً ، ثم قمت فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرس ، فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرتُ بسلاحى ، فأُخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذتُ قداحى التى استقسمت بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى [2] ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : « لا يضره » .

قال : وكنت أرجو أن أرده على قريش ، فآخذ المئة الناقة ، قال : فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد بى عثر بى ، فسقطتُ عنه . قال : فقلت : ما هذا ؟ قال : ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : « لا يضره » .

---

(١) وهذه هى المعجزة الثالثة فى واقعة الهجرة .

(٢) اللأمة : الدرع والسلاح .

قال : فأبيتُ إلا أن أتبعه . قال : فركبتُ فى أثره ، فبينما فرسى يشتد بى ، عثر بى ، فسقطتُ عنه . قال : فقلت : ما هذا ؟ قال : ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : « لا يضره » .

قال : فأبيتُ إلا أن أتبعه ، فركبتُ فى أثره . فلما بدا لى القوم ورأيتهم ، عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطتُ عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالإعصار [1] .

قال : فعرفتُ حين رأيت ذلك أنه قد مُنِع منى ، وأنه ظاهر . قال : فناديتُ القوم ، فقلت : أنا سراقة بن جعشم ، أنظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شئ تكرهونه . قال : فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « قل له : وما تبتغى منا » ؟ قال : فقال ذلك أبو بكر ، قال : قلت : تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك . قال : « اكتب له يا أبا بكر » .

فكتب لى كتاباً من عظم ، أو فى رقعة ، أو فى خزفة ، ثم ألقاه إلىّ ، فأخذته فجعلته فى كنانتى ، ثم رجعت ، فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ ، وفرغ من حنين والطائف ، خرجتُ ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة .

قال : فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار . قال : فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إليك ، ماذا تريد ؟ قال : فدنوتُ من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه ، كأنها جمارة . قال : فرفعتُ يدى بالكتاب ، ثم قلت : يا رسول الله ، هذا كتابك ، أنا سراقة بن جعشم ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « يوم وفاء وبر ، ادنه » . قال : فدنوتُ منه ، فأسلمت .

ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره ، إلا أنى قلت : يا رسول الله ، الضالة من الإبل تغشى حياضى ، وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال : « نعم ، فى كل ذات كبد حرى أجر » .

قال : ثم رجعت إلى قومى ، فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتى » [2] .

*

(١) الإعصار : ريح فيها غبار .

(٢) السيرة النبوية - لابن هشام : ١/٣٠٩

ثم مرّ رسول الله ﷺ وصحبه بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة برزة جلدة ، تحتبى بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقى مَن مرّ بها ، فسألاها : هل عندها شئ يشترونه ؟ فقالت : والله لو عندنا شئ ما أعوزكم القِرَى ، والشاء عازب - وكانت سنة شهباء - فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كِسْر الخيمة ، فقال : « ما هذه الشاة » ؟ . قالت : خلّفها الجَهْد عن الغنم . فقال : « هل بها من لبن » ؟ قالت : هى أجهد من ذلك . قال : « أتأذنين لى أن أحلبها » ؟ قالت : نعم - بأبى أنت وأمى - إن رأيتَ بها حليباً فاحلبها .

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ، فتفاجّتْ عليه ودرّت . فدعا بإناء لها يربض الرهط ، فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، ثم شرب هو . وحلب فيه ثانياً فملأ الإناء ، ثم غادره عندها وارتحلوا [1] .

فقلّ ما لبثت أن جاءها زوجها يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً . فلما رأى اللبن قال : من أين هذا والشاة عازب ، ولا حلوبة فى البيت ؟

قالت : لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، ومن حديثه كيت وكيت . قال : والله إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه . صِفيه لى يا أم معبد .

قالت : ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخَلْق ، لم تعبه تُجلة ، ولم تزر به صُعلة ، وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صَحَل ، وفى عنقه سَطَع ، وفى لحيته كثاثة ، أحور أكحل ، أزج أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإذا تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فَصْل ، لا نذر ولا هَذْر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، رَبْعة لا تقتحمه عين من قِصر ، ولا تشنؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم

---

(١) وهذه رابع المعجزات فى واقعة الهجرة .

قدراً ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود ، لا عابس ولا مفند .

قال أبو معبد : هذا واللّه صاحب قريش الذى تطلبه ، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن ، إن وجدتُ إلى ذلك سبيلاً .

وقيل فى هذا :

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكموا إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل ، فتحلبت ... له بصريح ضَرَّةُ الشاة مزبد [1]

* * *

ويقول الإمام البوصيرى رضى اللّه عنه :

أَقْسَمْتُ بِالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لَهُ ... مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ القَسَمِ [2]

وَمَا حَوَى الغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ ... وكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الكُفَّارِ عَنْهُ عَمِى

فَالصِّدْقُ فِى الغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا ... وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالغَارِ مِنْ أَرَمِ [3]

ظُنُّوا الحَمَامَ وَظَنُّوا العَنْكَبُوتَ عَلَى ... خَيْرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُمِ [4]

وِقَايَةُ اللّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ ... مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ [5]

ويقول أمير الشعراء شوقى :

سَلْ عُصْبَةَ الشِّرْكِ حَوْلَ الغَارِ سَائِمَةً ... لَوْلاَ مُطَارَدَةُ المُخْتَارِ لَمْ تُسِمِ [6]

---

(١) مختصر سيرة الرسول ، للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ٩٦ (بتصرف) .

(٢) والمعنى : أنه من قبل معجزة انشقاق القمر شق ملكان قلب الرسول ﷺ ، وأخرجا منه حظ الشيطان ، فبكون بين الانشقاقين - القلب والقمر - تناسب فى كونهما خارقين للعادة .

(٣) لم يرما : لم يبرحا ولم يزولا ، من رام المكان إذا زال عنه وفارقه . أرم : مقيم .

(٤) تنسج : راجع إلى العنكبوت ، تحم : أى تحوم ، راجع إلى الحمام .

(٥) الأُطُم - بضم الهمزة والطاء : الحصن ، وجمعها آطام .

(٦) عصبة الشرك : كفار مكة ، الغار : كالثقب بجبل « ثور » أسفل مكة ، سائمة : راعية .

هَلْ أبْصَرُوا الأثَرَ الوضَّاءَ ، أمْ سَمِعُوا ... هَمْسَ التَّسَابِيحِ وَالقُرآنِ مِن أمَمِ [1]

وَهَلْ تَمثَّلَ نَسْجُ العَنْكَبُوتِ لَهُم ... كَالغَابِ وَالحَائِمَاتُ الزُّغْبُ كَالرُّخَمِ [2]

فأدْبَرُوا ، وَوُجُوهُ الأرْضِ تَلْعَنُهُم ... كَبَاطِلٍ مِنْ جَلالِ الحَقِّ مُنْهَزِمِ [3]

لَوْلاَ يَدُ اللهِ بِالجَارَيْنِ مَا سَلِما ... وَعَيْنُهُ حَوْلَ رُكْنِ الدِّينِ ، لَمْ يَقِمِ [4]

تَوَارَيَا بِجَنَاحِ اللهِ وَاسْتَتَرَا ... وَمَنْ يَضُمُّ جَنَاحُ اللهِ لاَ يُضَمِ [5]

* * *

يقول أنس بن مالك رضى الله عنه : « إنى لأسعى فى الغلمان يقولون : جاء محمد .. فأسعى ولا أرى شيئاً ، ثم يقولون : جاء محمد ، فأسعى ولا أرى شيئاً ، حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه ، فكمنا فى بعض خراب المدينة ، ثم بعثنا رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما الأنصار ، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار ، حتى انتهوا إليهما ، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين .. فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم ، فخرج أهل المدينة حتى إن العوائق - أى الجوارى - لفوق البيوت يتراءينه يقلن : أيهم هو؟ أيهم هو ؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به » .

---

(١) من أمم : من قرب .

(٢) الغاب : الشجر الكثير المتكاثف ، الحائمات الزغب : الحمام ، الرخم : جمع رخمة وهى طائر على شكل النسر إلا أنه منقط بالسواد والبياض .

(٣) شبه إدبارهم ونكوصهم على أعقابهم خائبين بدمغ الباطل وإدحاضه ، ونسبة اللعن لوجوه الأرض مجاز عقلى ، واللاعن مَن فيها من المسلمين والملائكة ، والمراد وجوه أهلها أى أعيانهم وأفاضلهم .

(٤) الجاران : الرسول ﷺ ، وأبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، والمراد باليد : النعمة ، وعينه : عنايته .

(٥) جناح الله : لطفه وستره ، يضم : يضمه ، تجوّز بالجناح عن اللطف والستر لأنهما لازمان له كما يضم الطائر جناحه على فرخه .

ويقول الإمام محمد بن عبد الوهاب : « لما بلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، كانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه ، فإذا اشتد حر الشمس رجعوا إلى منازلهم ، فلما كان يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول ، على رأس ثلاث عشرة سنة من نبوته ، خرجوا على عادتهم . فلما حميت الشمس رجعوا ، فصعد رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة ، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فصرخ بأعلى صوته : يا بنى قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء ، هذا جدكم الذى تنتظرونه .

فثار الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ . وسُمِعت الوجبة والتكبير فى بنى عمرو بن عوف ، وكبّر المسلمون فرحاً بقدومه ، وخرجوا للقائه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، وأحدقوا به مطيقين حوله .

فلما أتى - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، عدل ذات اليمين ، حتى نزل بقباء بنى عمرو بن عوف ، ونزل على كلثوم بن الهدم ، أو على سعد بن خيثمة - فأقام فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة ، وأسس مسجد قباء ، وهو أول مسجد أسس بعد النبوة .

فلما كان يوم الجمعة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف . فجمّع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، ثم ركب . فأخذوا بخطام راحلته يقولون : هلم إلى القوة والمنعة والسلاح . فيقول : « خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة » .

فلم تزل ناقته سائرة ، لا يمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه فى النزول عليهم ، فيقول : « دعوها فإنها مأمورة » ، فسارت حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم - وكان مربداً لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل - فبركت ولم ينزل عنها ، حتى نهضت وسارت قليلاً ، ثم رجعت وبركت فى موضعها الأول ، فنزل عنها .

وذلك فى بنى النجار ، أخوال جده عبد المطلب .

وكان من توفيق الله لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم . فجعل الناس يكلمونه فى النزول عليهم ، وبادر أبو أيوب خالد بن زيد إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « المرء مع رحله » ، وجاء أسعد بن زرارة ، فأخذ بخطام ناقته ، فكانت عنده [1] .

* * *

ثم آخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وكانوا تسعين رجلاً . نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، وعلى أن يتوارثوا بعد الموت ، دون ذوى الأرحام ، إلى وقعة بدر ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [2] جعل التوارث إلى الأرحام .

وقيل : إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ، واتخذ علياً أخاً لنفسه . والأثبت الأول .

* * *

(١) مختصر السيرة النبوية ، للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ٩٨ ، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ، والسيرة النبوية لابن هشام .

(٢) الأنفال : ٧٥